

دار الفكر
للدراسات
و النشر و التوزيع

جان فيركوتير

مصر القديمة

ترجمة : ماهر جويجاتي



١٧
كتاب الفكر

مطر القطيعة

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٩٣
جميع الحقوق محفوظة


دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع
القاهرة - باريس

القاهرة، ش.م.أ. لبيب - رقم ١١/٢٥
مدرسة نمير - المنطقة الخامسة

تليفون: ٧٧٣٥٠٧٤

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
العشقة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة - القاهرة 

چان ڦيرڪوتير مصر القديمة

ترجمة : ماهر جويجاتي



ترجمة كتاب

QUE SAIS-JE ?

L'Égypte ancienne

JEAN VERCOUTTER

Membre de l'Institut

Treizième édition corrigée

101^e mille

© Presses Universitaires de France, 1946
108, boulevard Saint-Germain, 75006 Paris



الباب الأول مصر في الزمان والمكان

١ - مصر وعالمنا المعاصر

في زمن استحوذت فيه على عقولنا أكثر الأبحاث العلمية تنوعاً، بما تحفل به من تباشير ووعود، وفي عصر تعاني فيه أفكارنا من هموم الحياة المادية ومن عدم اليقين بالنسبة للمستقبل، فإنه قد يبدو من المفارقات الغريبة أن يهتم المرء بمصر القديمة - رغم البعد الزمني السحيق الذي يفصلها عنا. لقد انقضى أكثر من خمسة آلاف سنة منذ حكم الفراعنة الأوائل مصر، بعد أن توحدت، ومرّ عشرون قرناً تقريباً منذ أن اضمحلت هذه الحضارة واندثرت إلى الأبد. ترى، ما الذي يستهويننا في هذا التاريخ القديم - بل الأقدم في العالم؟

إن قدم الحضارة المصرية في حد ذاته هو أمر على قدر كبير من الأهمية. فلم تعرف مصر انفصلاً بين حضارات عصر الحجر المصقول والعصر التاريخي، فالمرحلة الأولى تقود إلى الثانية.

وهندما بدأت مصر تاريخها المكتوب، حوالي عام ٣١٠٠ قبل الميلاد، كان وراها تجرية إنسانية طويلة، فتم بشكل نهائى اكتساب رقعة الأرض الزراعية، وتشكلت عناصر الديانة المصرية، وثبتت لمصر لغتها وكتابتها، وتوطدت مؤسساتها الرئيسية. ومن ثم يمكن اعتبار عام ٢١٠٠، تاريخاً اصطلاح عليه، تماماً كما اصطلاح على اعتبار عام ١٢٩٥م بداية العصر الوسيط فى أوروبا. والواقع انه من الصعوبة بمكان أن نحدد تاريخاً لبداءات الحضارة المصرية التى تختلط بميلاد المشهد البشرى فى مصر بعد أن وضع الإنسان يده على وادى النيل، ورغم أن البرونز كان معروفاً فى زمن الدولة الحديثة (١٥٠٠ ق.م)، فقد ظلّ المصريون يجيدون قطع الطران ويستخدمون فى طقوسهم الدينية نفس السكاكين المصنوعة من الحجر المصقول، تماماً كما كان يستخدمها آخر الرجال من أبناء العصر «الإنبولوثى» (الحجرى القحاسى) فى وادى النيل. وكان الكهنة الجنازيون يتبرعون بنفس العبارات التى تناقلها أسلافهم البعيدين شفاهة، قبل ظهور الكتابة. ومن هنا، فإن تاريخ مصر يشكل أطول تجرية إنسانية حضارية، إذ يمتد من الألف الرابع على أقل تقدير حتى العصر المسيحى. وطوال هذه الحقبة الطويلة جداً، ظلت جماعة من البشر تتحدث نفس اللغة، وتعتنق نفس التصورات الذهنية عن الحياة الدنيا والآخرة، وتعيش فى ظل نفس القوانين. ألا تعتبر دراسة هذه الحضارة

ومقارنتها بحضارتنا المعاصرة، من الأمور المثيرة حقاً؟ فيما تغيّر الإنسان منذ هذه الأزمنة الغابرة (إن كان حقاً قد تغيّر)؟ هل هناك تطور للحضارات، أو بالأحرى حياة للمجتمعات البشرية على غرار الأفراد: ميلاد، ونمو، ونضج ثم موت؟ وهل الموت هو المصير المحتوم الذى ينتظر كافة الحضارات؟ كيف تولد الحضارات وكيف تختفى؟ أسئلة لا تستطيع دراسة مصر القديمة، أن تجد لها بكل يقين، رداً شافياً، إنما يكفيها أنها طرحتها. إن الحضارة المصرية بالنسبة لكل شخص مهتم بالإنسان، تظل مصدر معلومات لا يمكن تجاهله. وتظل هذه الحضارة جديرة شأنها شأن الحضارتين الإغريقية والرومانية القديمتين - بأن تكون إحدى ركائز النزعة الإنسانية الحديثة.

بيد أن ما يثير اهتمامنا بالحضارة المصرية ليس فقط قدمها، ولكن أيضاً استعرازيها وتواصلها، ففي أوروبا وأمريكا تتعاقب الحضارات أيضاً، ولكنها تختلف عن بعضها البعض، فيفصل بين كل حضارة وأخرى سدع عميق: الغزو الرومانى للعالم الكلتى والغزوات الكبرى للعالم اللاتينى، وغزو أسبانيا للأمريكيتين الوسطى والجنوبية، الخ،، ففي كل مرة يعود التساؤل حول جوهر الحضارة ذاته إلى طرح نفسه على بساط البحث، والمجتمع البشرى الذى يتشكل فى أعقاب هذه التقلبات لا يشبه المجتمع الذى سبقه. أما فى مصر فإن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث،

ومنذ بداية العصر الحجري الحديث وحتى السيطرة الفارسية والغزو المقدوني، وتاريخ مصر يسير في مجرى منتظم، ومما لا شك فيه أن البعض قد بالغ من الظاهرة التي شكلتها حضارة عظمى، ولدت ونمت في عزلة تامة، كما يعتقد البعض، لقد كان هناك تسلسل أجنبي ومؤثرات خارجية، ولكن كل ذلك لم يكن من القوة بحيث يؤثر في الطابع الأصلي للحضارة المصرية، فمصر النواة الوسطى هي السليبة الشرعية للدولة القديمة، كما ظلت مصر بعد غزو الهكسوس هي كما كانت دائماً، هذه الاستمرارية الفريدة في بابها، خاصة عندما تفكر في الزمن الذي استغرقته، ترجع في الجانب الأكبر منها إلى ارتباط الحضارة المصرية ارتباطاً وثيقاً بمجتمع جغرافي؛ هو وادي النيل، ومهما قال البعض أو ذهب في ظنونه، فإن مصر لم تستورد حضارتها، ولدت حضارة مصر في وادي النيل ذاته، وهي حضارة نيلية إفريقية، في جوهرها، وهذا ما أعطاها قوة هائلة، فلقد تكيفت بالفعل تكيفاً لصيقاً بالإطار الجغرافي الذي انبثقت منه والذي أسهمت في نفس الوقت في خلقه. ومن ثم كان على الغزاة الذين خاطروا وجاءوا إلى وادي النيل، في فترات الضعف أو الفوضى، إما أن يندمجوا على جناح السرعة أو أن يُلْفَظُوا إذا تعذر عليهم التكيف مع ضروريات البلاد، وكانت استمرارية الحضارة في مصر ذات فائدة عظيمة للوصول إلى معرفة ثاقبة بتاريخ العالم، فهي لا تلقى الضوء فحسب على الحياة القديمة في القارة الإفريقية التي بدونها لما عرفنا عنها

شيء، بل إنها تسمح لنا بدراسة وتأريخ بعض الثورات التقنية أو الأخلاقية التي أثرت في البشرية في عصورها القديمة. فمنذ بداية استخدام المعادن والتحسينات التي أدخلت على الزراعة وتربية الماشية وتقنيات البناء والتشييد وصناعة النسيج والرعي، ومنذ اختراع الدفة، ومنفاخ الحديد، واستخدام الحصان وصولاً إلى ظهور الإصلاحات الأخلاقية في الديانة الوثنية وانتشار المسيحية، فإن كل الأحداث، صغيرها وكبيرها، والتي رسمت طريق التطور في الشرق القديم أو في العالم الكلاسيكي، تركت بصماتها في مصر.

وأخيراً، فإن مصر لا تفرض نفسها على فضوانا بسبب قدم تاريخها واستمراريتها فحسب، إنها بسحر إنسانيتها قد بلغت العالمية، فحضارتها، وهي الأكثر عراقة في العالم، هي أيضاً من أكثرها اكتمالاً، وحتى في أيامنا هذه يميل البعض إلى النظر إلى مصر على أنها حضارة غريبة، تجمدت في سكون لا أكثراثنى ولا إنسانى، ولكن مصر شيء آخر، فهي خلافاً لهذا التصور، تمثل إنسانية عميقة جديدة بشدة اهتمامنا. لقد سعت مصر إلى البحث عن إجابات للمعضلات التي ما فتئت تتسلط على فكر الإنسان، فعلى امتداد تاريخها الذي يناهز الأربعة آلاف سنة، عانت مصر من شتى صروف الحياة التي تصيب أى مجتمع بشري، من هروب أهلية وفوضى ومجاعات وغزوات أجنبية وصراعات دينية، فلم

تجنبها الحياة شيئاً. لقد عرفت مصر كل شيء، القلاقل الاجتماعية أو الاضطرابات الدينية على حد سواء، وتقاذفها الإيمان والشك، كما بذلت كل المحاولات للإفلات من مصير الإنسان المحتدم: فارتعدت أمام الموت وحاولت تهره، واليوم ربما بدت محاولاتها هذه سببانية، ولكن ما يمنعنا من تصور ذلك هو العظمة الراسخة لأثار مصر وألقتها الجنائزية بملاحها الجامدة التي تثير القلق.

وهكذا فإِ مصر جديدة بأن نتعرف عليها من خلال الدراما الإنسانية التي يمثلها تاريخها، هذا التاريخ الذي نون طوال هذا الزمن على مختلف الآثار التي ساعد مناخ مصر على حفظها حتى وصلت إلينا. فقبل الإفريق بأكثر من ألفي سنة عمد الفن المصري، ربما بشكل عضوي، ولكن بكفاءة، إلى تمجيد الإنسان وعمله وآلامه وأفراحه، إن الأقنعة التي صنعها المثالون المصريون للوكهم وخلقوها لنا، والتي يبدو بعضها مهيباً، وتنم ملامح بعضها الآخر عن الدعة، أو تكشف أحياناً عن الألم والمأساة، هي أقنعة تشير إلى قوة الملاحظة التي عرف هؤلاء المثالون كيف ينظرون من خلالها إلى الإنسان ويفهمونه.

كما تشهد هذه الأقنعة على دراما الإنسان وقد سيطر على عمله، أو على العكس سحقه هذا العمل، بل وأضحى غير أهل لثمة. ولم يكتفِ المصريون بملاحظة الإنسان وحسب، بل امتدَّ بصرهم بالملاحظة إلى كل ما يحيى من حوالهم: الثدييات والطيور

والأسماك بل والنبات أيضاً، وقد ردّ إليها الفن المصري حياة متدفقة. أما الأدب المصري، وإن كان أفقر من الأدب الهليني بمراحل، إلا أن ذلك لا يعنى أنه عديم الأهمية. فقد توصل إلى أساليب لازالت تفتننا برغم ما يفصلنا عنه من زمن شاسع.. وهكذا أثرت مصر بفنّها تراث الإنسانية قاطبة ولعبت دوراً فى التاريخ العالمى لا يجب أبداً الإقلال من شأنه. فإن كانت مصر لم تأخذ من الآخرين سوى القليل إلا أنها أعطت فى المقابل الكثير، وما اصطلح على تسميته بالعالم الكلاسيكى، ما كان ليصبح ما كان عليه لو لم تسبقه مصر القديمة بزمن طويل لتشرق بروب الحضارة، وإذا كان من الصعب معرفة مدى تأثيرها على الحضارة اليونانية الوليدة، إلا أنه لا يمكن إنكار تأثيرها على نمو هذه الحضارة. ولم يفت هيروdotus بالتحديد أن يشير إلى هذا الأمر. فقد انتقلت عن طريق الإغريق بعض المفاهيم المصرية القديمة إلى حضارتنا الغربية، ومن ثم كان من حق مصر علينا أن نعرفها ولو باعتبارها مهد أجدادنا الأولين.

٢ - معرفة مصر

أقدم الحضارات فى العالم، هى أيضاً إحدى الحضارات التى لم نعرفها إلا منذ عهد قريب، إذ جاء «اكتشافها» قبل مايزيد قليلاً على القرن من الزمن، وهو مايعنى أن علم المصريين لايزال علماً

حديث العهد . فلم يتسن لنا معرفة اللغة المصرية إلا منذ ما يقرب من ستين سنة . . كذلك لم نلم بعد بميدان علم المصريات بأكمله ، فلازلنا في مرحلة الاستكشافات ، وتقواصل الحفائر بانتظام وتمدنا سنوياً بوثائق جديدة ، ويجرى نشر ما سبق جمعه من آثار بشكل منهجى منسق ، وطالما لم نصل بعد إلى معرفة كل المصادر التاريخية فلا يزال أملنا كبيراً في الوصول إلى اكتشافات جديدة . بيد أن ما تجمع بين أيدينا من معلومات يكفى للشروع في كتابة تاريخ الحضارة المصرية في خطوطها العريضة ، ولم يكن في مقدورنا أن نعرض هذه الصورة الإجمالية عن الحضارة المصرية القديمة ، على إيجازها ، لولا اكتشافات «جان فرانسوا شامپوليون» Jean - François Champolion (١٧٩٠ - ١٨٢٢) مبدع علم المصريات ، وكان من النتائج المثيرة لغامرات نابليون ، أنها شددت انتباه العقول المتعطشة إلى المعرفة إلى الشرق الأدنى المصرى ، ويمكن القول دون مبالغة أن إعادة اكتشاف مصر القديمة يرجع إلى عام ١٨٠٩ مع نشر كتاب «وصف مصر» Description de l'Égypte الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ ، لقد احتوى هذا المؤلف الهائل على مواد ومعلومات جديدة ، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الحركة الرومانسية تحيي ذوق الماضى وذوق الشرق ، وليس من قبيل المصادفة أن «ديلاكروا» Delacroix و «بيرون» Byron و «لامرتين» Lamartine على سبيل

المثال لا الحصر، كانوا معاصرين لشمپولايون، وكانوا مثله مشودين إلى عالم الشرق. وبطبيعة الحال لم يكن كافياً أن تتوفر الظروف المواتية، وأن يتوصل علماء البعثة الفرنسية في مصر بفضل علمهم الرائع الذؤوب إلى جمع المعلومات اللازمة لإنجاز هذا الاكتشاف، بل كان الأمر يحتاج أيضاً إلى العبقرية. وكان شمپولايون يمسك هذا الوهج الذي لا غنى عنه، فقد كان شغوفاً بمصر متحمساً لها منذ نعومة أظافره، وانكب يتعلم يجد كل مايشفى غليل ما يراوده من شغف؛ أن يلمّ بتاريخ مصر، وفتح له تكوينه الكلاسيكى الطريق أمام المصادر اليونانية واللاتينية. ثم زاد عليها بفضل جهده الذؤوب، معارف متخصصة كان يدرك مدى فائدتها: ففي القرن السابع عشر برهن الأب «كيوشر» P. Kircher، وهو من الآباء اليسوعيين، على أن اللغة المصرية الكلاسيكية، لاتزال حية من خلال اللغة القبطية التي ظلت على أيامه لغة الحديث بين رهبان مصر، وظل الرهبان يستخدمونها حتى القرن التاسع عشر، ومن ثم تعلم شمپولايون اللغة القبطية وأضاف إليها دراسة العربية والعبرية. ألا يتحدث شعب مصر اللغة المصرية وألا يعتبر الكتاب المقدس أحد أهم مصادر تاريخ مصر؟ وترشياً لهذه الدراسات تعلم السريانية والآثيوبية و«الكلدانية» (الآرامية). وهكذا واجه مشكلة المشاكل، وهى فك الرموز الهيروغليفية، وقد تسلح لها أحسن تسليح.

كان أحد قواد بونايرت الفرنسيين قد اكتشف في دلتا النيل كتلة من البازلت الأسود نقش على سطحها نص مدون بثلاثة خطوط مختلفة. هذه الكتلة الحجرية المعروفة اصطلاحاً بحجر رشيد نسبة إلى المكان الذي عثر عليها فيه، نشرت في كتاب وصف مصر، وعلى الفور صارت محل اهتمام الدوائر العلمية بالنظر إلى أهميتها، وفي واقع الأمر كان أحد الخطوط الثلاثة، وهو الخط اليوناني معروفاً؛ فأما اللثام عن مرسوم صادر عن بطليموس الخامس إيفانوس (الظاهر)، أما الخطان الآخران، فكان يتكون أحدهما من علامات تشبه تلك التي تشاهد على سطوح المباني المصرية التي حفظها الزمن وهو الخط الذي يعرف اصطلاحاً منذ إكليمندس السكندري بالخط الهيروغليفي، (علامات الكتاب المقدسة) أما الخط الآخر - وهو مختلف كل الاختلاف، مع وجود بعض أوجه الشبه بينه وبين الخط العربي؛ فلا بد أنه كان الخط الديموطيقي، وهو خط مختصر شاع استخدامه في الوثائق الشعبية.

وأقرّ الجميع على الفور وبحق، أن النصين الهيروغليفي والديموطيقي هما بكل بساطة ترجمة للنص اليوناني. وبدى أن المشكلة بسيطة؛ فالمطلوب قراءة وفهم لغة مجهولة تُرجم إليها نص مفهوم. وبالنظر إلى أن النصين المصريين لم يتركوا فواصل بين الكلمات شأنهما شأن النص اليوناني - كان لا بد من التوصل إلى

موضع كل كلمة ومعناها ومحلها في الإعراب. لقد وقفت نخبة من عقول هذا العصر الثاقبة عاجزة أمام هذه المشكلة السهلة الحل في ظاهرها. زد على ذلك، أن المشكلة لم تطرح نفسها بالبساطة التي عرضنا لها. فبداية النقش الهيروغليفي كان مهمشماً والباحثون يجهلون عدد السطور الناقصة. أما النص الديموطيقي فكان وحده سليماً. بادئ ذي بدء، تصدى «أكريلا» Akerblad و«سيلفستر دي ساسي» Sylvestre de Sacy لهذا النص الأخير، وتوصلا إلى تحديد موضع أسماء بطليموس في النص، ولم يذهبا إلى أبعد من ذلك، وانكب «يونج» Young، الطبيب والفزيائي البريطاني الذائع السيط، على النص الهيروغليفي، فتوصل هو أيضاً إلى تحديد موضع إسم بطليموس، واستخدم الأصوات التي اعتقد أنه قد استطاع استنتاجها، لمحاولة قراءة باقي النص، ولكن دون جدوى. عندئذ تدخل شامپوليون الذي يتابع في شفاف أبحاث من سبقوه. فمسألة المنهج هي التي كانت تقف في واقع الأمر حائلاً دون تقدمهم. هل الكتابة المصرية تصويرية، فتشير كل علامة فيها إلى صوت واحد، كما هو الحال في اللغات الحديثة، وما هي هذه الأصوات؟ وهل هي أبجدية أم مقطعية؟ إن شامپوليون نفسه قد تردد طويلاً. واكتشف بداية إن الحروف الساكنة وحدها هي التي تكتب مع إغفال الحروف المتحركة؛ شأنها في ذلك شأن العبرية والعربية القديمة. فلا يتبقى

من الكلمة سوى هيكلها العظمى، ومن فرط ما تلمس طريقه، ومن كثرة ما قلب المسألة في ذهنه، لاحت له الحقيقة فجأة، إذ كان النص المصرى يحتوى بكل وضوح ورغم ما أصابه من تشويه على عدد من العلامات أكثر بكثير من النص اليونانى، وهى ظاهرة كانت تحتاج قبل كل شئ إلى تفسير، وأدرك شميليون على الفور أن هذه العلامات الزائدة مردها إلى حقيقة أن المصرية القديمة كانت فى أن واحد تصويرية وصوتية، أو كانت بعبارة أخرى، تضم علامات تقرأ وأخرى لا تقرأ - وهى تحديد معنى الكلمة، فحسب، شرع شميليون يطبق ماتوصل إليه من اكتشافات، فقرأ أول ما قرأ جميع أسماء الملوك اليونانيين، فى ترجمتها المصرية، ثم تصدى بعد ذلك للكلمات المصرية، بمعنى الكلمة، واعتماداً على إلمامه باللغة القبطية، لم يتوصل فحسب إلى قراءة إسم رمسيس الشهير على أثر آخر، بل نجح أيضاً فى فهم معنى الإسم ويعنى «رع (إله الشمس) أنجبه»، وهكذا خطى الخطوة القاصلة، فاستطاع أن يفهم الهيروغليفية (١٨٢٢)، ومن الآن فصاعداً، انكب شميليون على ما وقع بين يديه من نصوص، فعمل بنشاط منقطع النظير وتغلب على كل ما اعترضه من عقبات، وفى عام ١٨٢٢، بعد مضى عشر سنوات على اكتشافه الأول، وضع كتاباً فى قواعد اللغة المصرية وشرع فى إعداد قاموس، وجمع خلال رحلة قام بها إلى مصر مادة لجموعة من المؤلفات عن آثار مصر

والنوبة، وأخذ يعد العدة للاستفادة من أعماله لإلقاء محاضرات في الكوليج دي فرانس Collège de France، عندما والته المنية وهو في الثانية والأربعين من عمره، وقد انهك ما بذله من جهد جهيد، وحتى توفي عمل شمبوليون حق قدره - إذ غالباً ما صدرت في حقه أحكام مجحفة وغير منصفة - ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار مستوى معارف علم المصريات، قبل فك رموز الكتابة الهيروغليفية. فماذا كنا نعلم عن مصر قبل عام ١٨٢٢ منذ أن أظقت المعابد المصرية أبوابها في القرن الرابع الميلادي اختفى كل من كان له القدرة على قراءة الهيروغليفية لتتحول كل الوثائق المصرية الأصلية إلى علامات صماء، فأنحصرت معلوماتنا بالضرورة على ماكتبه المؤلفون الإغريق عن مصر، نذكر منهم هيروdot وديودورس الصقلي واسترابون وبلوطارخوس، ويمكن أن نضيف إلى هذه المصادر بعض ماكتبه آباء الكنيسة، أمثال أكليدس الإسكندري ويوسابيوس القيصرى، ولا ينبغي بالطبع التقليل من أهمية هذه المصادر الكلاسيكية، فمن وسط هذه المؤلفات، يشدنا أحدها بصفة خاصة، ففي زمن أحد البطالمة، وضع كاهن مصرى يدعى «ماتتون» تاريخاً لمصر تلبية لطلب الملك الإغريقى، ولو حفظ لنا الدهر هذا السفر كاملاً، لكان جليل الفائدة، نظراً لأن «ماتتون» كان مازال يمتلك ناصية الهيروغليفية. وللأسف ضاع هذا المؤلف النقيس ولكنه تواتر إلينا على هيئة

شذرات مبعثرة وردت ضمن ما استشهد به بعض الكتاب كالمؤرخ اليهودي «يوسفوس» و«سكستوس يوليوس» المؤرخ الإغريقي الملقب بالإغريقي والمختصر الذي أعدّه عنه يوسايبوس القيصري، ومع ذلك فكل ما نعرفه عن هؤلاء الكتاب الأواخر إنما وصلنا من خلال المصنف الذي صنّفه «جورج السنسيلي» - Georges le syn- celle في النصف الثاني الميلادي.

إن مؤلف مانتون كما وصلنا ليس سوى ظل لظل، والفائدة الوحيدة التي ندين بها له هو تقسيم تاريخ مصر إلى ثلاثين أسرة. ولا تمثل جميع هذه المصادر مجتمعة سوى أقل من القليل، إذ من الصعب أن نستفيد منها، وبالفعل لم يجمع أصحاب هذه المؤلفات ما توصلوا إليه من معلومات، مباشرة وبدون وسيط، بل لم يتعد كاتبوه عن كونه مجموعة من «القييل والقال»، ثم جاء اكتشاف شمبوليون ليغير من وضع المسألة، إذ أضحت الوثائق المصرية سهلة المنال، وصار في الإمكان التحقق من صحة المصادر الكلاسيكية واستكمالها، وشرعت مصر تولد من جديد.

ويفضل الأسس التي وضعها شمبوليون، أمكن لعلم المصريين أن ينهض، وما زال يواصل نهوضه، بالنظر إلى أنه لم يتم إلى الآن حصر الثروات التي قدمتها لنا مصر، ولا هو على وشك أن يتم، فما زالت مصر القديمة تدخر لنا اكتشافات، على غرار اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون واكتشاف لفنات تانيس - صان الحجر،

حاليا - فى وقت لاحق، ومن ثمّ تظل مصر القديمة حاضرة - رغم كل ما يبدو من مظاهر - فنراها تبعث إلى الحياة أمام أعيننا مع كل صدفة تقود إلى اكتشاف جديد.

ويتم نشر هذه الاكتشافات تباعاً فى العديد من الدوريات الفرنسية وغير الفرنسية، وبالتدريج يزاح الستار عن حضارة كانت من الناحية العلمية فى طىّ النسيان قبل قرن من الزمان، وهو ما لا ينبغى أن يغيب عن بالنا.

وقبل أن نتطرق إلى تاريخ هذه الحضارة نرى من الضرورى أن نرسم صورة للبلد الذى أنجبها، ونحن لا نرمى من وراء ذلك، تكريس عادات تقليدية متواترة، بل لأن معرفة الإطار الطبيعى، أمر ضرورى لكل من يريد أن يفهم تاريخ مصر وعادات سكانها.

٣ - تاريخ أرض مصر

سعى العلماء على مرّ الزمان إلى الكشف عن مدى تأثير البيئة الطبيعية فى المجتمع البشرى الذى يعيش فى كنفها، فقد سبق أن قال الإغريق بوجود مثل هذا التأثير، وكان هيبوقراط يميز بين ساكن المرتفعات بقامته الطويلة وشجاعة ووداعة طباعه وبين ساكن الأراضى المكشوفة القليلة المياه متوتر المزاج وجامد المشاعر وصعب المراس، ولكن لن نتورط فى هذا الضرب من التعميمات الجسورة، ومع ذلك فتأثير البيئة فى مصر واضح للعيان بما تركته

البيئة الجغرافية من بصمات، كما يتضح من الاتجاهات التي انتحاهما تنظيمها الاقتصادي وتطورها السياسي، ويرجع الجانب الأكبر من أصالة حضارة مصر إلى أنها فريدة في بابها من الناحية الجغرافية.

إلى أن أتى القرن التاسع عشر الميلادي، ومن بعده القرن العشرون، بتغييرات جوهرية في حياة وادي النيل، فشيدت السدود التي زادت أهميتها بمرور الزمن، في الوقت الذي دخلت فيه وسائل المواصلات السريعة، لقد أثرت عوامل جغرافية ثلاثة في المجتمع المصري: (١) مصر واحة، (٢) مناخها هو مناخ إقليم الصحراء الكبرى (٣) طول الوادي عشرة أضعاف عرضه على وجه التقريب.

ومنذ جوتيه E. - F. Gautier، أصبحت مقولة أن مصر واحة من المقولات التي لا يجادل فيها أحد، بل إن كلمة واحة ذاتها مصرية الأصل، ولكن نود التأكيد على أن مصر من واحات إقليم الصحراء الكبرى، ومن المعتاد أن ينال مدى تأثير هذه الحقيقة التاريخية على حضارة مصر أقل مما تستحقه من اهتمام، فالواحة ليست بقعة خضراء، فوق سطح أصفر نحسب، كما اعتدنا أن نتصورها من خلال خرائط الأطلس، إن وجود الواحة يرجع إلى مجموعة من المقومات الطبيعية والبشرية، ترتبط ارتباطاً وثيقاً، فإذا غابت إحداها غابت الواحة عن الوجود، وعدد

هذه المقومات ثلاثة من ظروف إقليم الصحراء الكبرى المناخية: فالواحة تحتاج إلى ماء وتربة يمكن استزراعها، وإلى العمل البشرى، فالماء دون تربة يمكن استزراعها يعطينا بئراً وحسب، وتربة يمكن استزراعها دون ماء هي صحراء وحسب، والماء والتربة التي يمكن استزراعها لا يعطيان شيئاً بدون العمل البشرى، وحتى التربة الجيدة تحتاج إلى الري في مناخ يغلب عليه الجفاف، ومعجزة مصر الوحيدة هي أن النيل هو الذي قَدَّم معاً الماء والتربة التي يمكن استزراعها، وما عدا ذلك فيعزى إلى الإنسان، وقد نندفع بسرعة وبسهولة، فننتحدث عن الظروف الفريدة التي توفرت للحياة على ضفاف نهر النيل وننسى أن هذه الظروف قد خلقها الإنسان بفضل نظم الري، ولاشك أن مصر هي «هبة النيل»، كما ظل الناس يرددون منذ أيام هيروdot. بيد أن مصر هي من خلق البشر، أولاً وأخيراً، فالإطار الجغرافي يحمل منذ البداية بصمات الإنسان، قبوده يظل ناقصاً غير كامل، ولكن البيئة الطبيعية تركت بدورها بصماتها على الإنسان، إذ ما أن تظهر الواحة إلى الوجود حتى تصبح شكلاً جغرافياً، بلغ حداً من التفرد، حتى أنه فرض بصماته على السكان.

فلنتناول بآدئ ذي بدء كيف تحققت في مصر المقومات الأساسية الثلاثة الضرورية لحياة الواحة، ثم ننتقل فيما بعد إلى بحث مدى تأثير حياة الواحة على المجتمع البشرى المصرى.

المياه : ترتبط حياة الواحة بمشكلة المياه. والنيل في مصر هو صاحب الفضل في حل هذه المشكلة. والنسق المعقد الذي يشكله نهر النيل ظل غير معروف حتى عهد قريب، ويكفي في هذا المقام أن نعرف أن النهر الذي ينبع من البحيرات الاستوائية الكبرى، فيتمتع بناء على ذلك بتصريف من مياه الأمطار الاستوائية تظل منتظمة على مدار السنة. ومن الراجح أن المياه الوافدة من البحيرات الكبرى كانت متصلة إلى مصر بكميات غير كافية نتيجة ما تتعرض له من عمليات بخر أثناء جريانها في أحواض النيل السوداني، لو لم تدعم بحصة إضافية من المياه المدارية ومن مياه الحبشة بصفة خاصة، ولعب الدعم الحبشي دوراً حاسماً بفضل هطول الأمطار الموسمية على هضبة الحبشة، ويقف هذا الدعم الحبشي وراء هذه الظاهرة التي تركت انطباعات قوية في أبناء العالم القديم، نعتى بذلك فيضان النيل. وبالنظر إلى المسافة التي يقطعها الفيضان إذ يبدأ رحلته من المناطق المدارية بحلول مايو/ يونيو - إلا أنه لا يصل مصر قبل شهر يوليو، واعتباراً من هذا التاريخ يرتفع الفيضان من جراء المياه القادمة من الحبشة، (وتبلغ الأمطار حدّها الأقصى فيما بين يونيو وأكتوبر، وهكذا فإن فيضان النيل هو فيضان صيف، وهو أمر له أهميته القصوى في بلد يسوده مناخ صحراوي حيث تتركز درجات الحرارة القصوى المتوسطة والمطلقة فيما بين شهري يوليو وأغسطس فتغمر المياه

تربة مصر في فترة تهدد فيها الشمسس باهتابة كل شئ بالجفاف. وخلال فصل الشتاء، يحافظ الدعم الاستوائى على انتظام مستوى النهر المنخفض فيوفر المياه اللازمة للأراضى المنزرعة، عن طريق رفع المياه بمختلف الوسائل (كما هو الحال في جميع الواحات).

التربة . - لا يأتى النيل بالمياه وحسب، بل يأتى الفيضان محملاً بالطمي الذى انتزع من التربة البركانية بأعلى الهبشة. وفي مصر تساعد زيادة بطء مجرى النهر على ترسيب الغرين فوق الحقول عندما يغمرها النهر. إن الغرين بعد أن يضاف إليه الدبال* - هو الذى يشكل تربة مصر ذات الخصوبة العالية حتى بات من الممكن في الوقت الراهن أن تغل محصولين أو ثلاثة في العام الواحد، ومن هنا ندرك الأسباب التى دفعت المصريين - بعد أن لاحظوا أن الفيضان هو واهب الماء والتربة معاً - إلى تأليهه في صورة الإله «جهي». ونظموا الأناشيد تكريماً له. ويقول أحدها: «تحية لك أيا «جهي». أخرج من هذه الأرض وأحضر لتهب مصر الحياة. إنك تخفى مجيئك في الظلمات (كان المصريون يجهلون موقع منابع النيل).. وتغشى أمواك البساتين.. أنت واهب الحياة لكل ظلمآن، عندئذ ارتفعت أصوات الأرض مهللة، فاليطون في فرح وسعادة، والظهور تهتز من الضحك والأسنان تمضغ».

* الدبال : مواد عضوية متحللة في التربة. (المعجم الجغرافى بمجمع اللغة العربية)

التاس . - كما سبق أن لاحظنا لم يكن في وسع الماء والتربة وحدهما أن يخلقا الواحة المصرية إذ كان الأمر يحتاج أيضا إلى عمل البشر، وتم إنجاز هذه المهمة منذ أن أصبح وادي النيل أهلاً بالسكان، إذ أن الجفاف لم يزحف في حقيقة أمره على مناطق الصحراء الكبرى دفعة واحدة، إنما بالتدريج. وكلما اشتد المناخ جفافاً هبط جانب من السكان المقيمين فوق هضبة الصحراء الكبرى الشاسعة ليتجمعوا حول نقاط الماء، وبخاصة على مقربة من النيل، وهكذا يتقبل الوادي موجات متعاقبة من السكان، وهؤلاء السكان هم الذين ظلوا يشكلون صلب الشعب المصري في العصور التاريخية، وسنتناول فيما بعد بالدراسة سماتهم الأساسية.

ومن ثم توغرت لمصر منذ الأزمنة الغابرة من تاريخ البشرية، العناصر الضرورية لتحي الواحة حياة مزدهرة، كما طبعت هذه الحياة بدورها مجمل مجتمع البشر بقسماتها الواضحة، وبشدتنا شداً ثبات الشعب المصري باعتباره «أقل شعوب العالم ثورية»، وهذه السمة ليست وهماً، فلنتذكر في هذا الصدد أن النظام السياسي المصري قد ظل على حاله على مدى أربعة آلاف سنة، مع فترات صاعدة وأخرى هابطة، لقد شجع على بروز هذه السمة حاجة البلاد إلى حكومة قوية سياسياً لتأمين الري، إذ لا تتحقق الاستفادة المرجوة من فيضان النيل، إذا ارتفع مستواه أو انخفض أكثر من اللازم، ولكن من الضروري في المقام الأول أن

يكون توزيعه توزيعاً منتظماً. فعملية توزيع المياه هي أم المشاكل في كافة الواحات، وبحضرتنا في هذا الخصوص تشريع المياه في واحات شمال إفريقيا). وقد فرضت هذه المشكلة على مصر أن تقيم السدود وبصفة خاصة القنوات والجسور مع حسن صيانتها. ولا يمكن تأمين أعمال الصيانة هذه إلا بإقامة سلطة مركزية قوية، تستطيع أن تعرض أعمال الصيانة على مختلف المقاطعات. ومن ثم يرتكز النظام السياسي المصري بأسره على ضرورة مادية وجغرافية، لا نظير لها في المجتمعات الغربية، وكان شعور المصريين بهذه الضرورة شعوراً قوياً. إن أقدم ما نعرفه من تصاوير الملك، تمثله وهو يقوم بشق قناة، وكان الماء هو شغل سكان وادي النيل الشاغل. إن أول قائمة ملكية وصلتنا تسجل ارتفاع منسوب فيضان النيل، على رأس الأحداث، قبالة كل سنة، فحياة البلاد كانت رهناً بمستوى هذا المنسوب، بل من المحتمل أن الضرائب كانت تقدر حسب الفيضان، ولم يقف تأثير الجغرافيا عند هذا الحد، بل يمكن القول أن الحضارة المصرية قد سيطر عليها وسواس الماء. فالماء هو القربان الأمثل الذي يقدم للمتوقف. إن الرسائل الغربية التي يبعث بها أحياناً الأحياء إلى الموتى يهدونهم فيها بحرمانهم من «سكب الماء»، إن لم يمتثلوا للأوامر الصادرة إليهم. فالى هذا الحد كانوا يعتبرون الماء عنصراً حيوياً لا غنى عنه. كما أن نصاً جغرافياً يميز بين بلد وآخر حسبما كان

أهله يشربون ماء النيل أو ماء الآبار أو ماء الجداول أو مياه الأمطار، كما أن محرر نص آخر يقسم الآبار إلى أربعة أنواع مختلفة، وتبرهن هذه السمات على أن المصريين قد تأثرو بصفاتهم من سكان الواحات سواء في حياتهم الإدارية أو في معتقداتهم الدينية أو أوصافهم، بل وفي لغتهم حيث تعرف اللغة المصرية أكثر من عشرين مصطلحاً للتعبير عن مختلف اتجاهات النيل ومسالكه، وقد دفعتهم هذه الصفة بالذات إلى تقدير الأرض الصالحة للزراعة حق تقدير، فأطلقوا على بلدهم «الأرض السوداء» («تاكمت») مقابل الصحراء الجديدة الحمراء، وليتجنبوا التعدي على الأراضي الزراعية أقاموا قرأهم في الصحراء إذ تعذر تجميعها فوق الرُبي، حماية لها من الفيضان، إن مصر بلد تتجمع فيها أماكن السكنى وهو ما يعتبر سمة بارزة لشهد الريف، ونتيجة لضرورة جغرافية، حيث قُرض على المصريين أن يحتسبوا من الفيضان دون أن يبدوا الأرض الصالحة للزراعة إلا في أضيق الحدود.

لقد طبعت مصر بواقع أنها واحة، كما طبعت حضارتها بمناخها الصحراوي في المقام الأول، ما عدا الشريط الساحلي في الدلتا. إن الهواطل الجوية* معدومة من الناحية العملية، (متوسطها ٢٢ مليمتر في السنة) والرياح جافة (عدا الرياح

* أو التماطل - وهو ما يسقط من ماء السماء على سطح الأرض في صور مختلفة كالطر والثلج والبرد وغيرها.
مجمع اللغة العربية، المعجم الجغرافي (ص ٢٠) (المترجم)

الشمالية). وتتميز درجات الحرارة اليومية بفارق شاسع بين درجات الحرارة في النهار وفي الليل، ووصل هذا التفاوت إلى ١٥ أو ١٦ درجة مئوية خلال فصل الشتاء. ومع ذلك لم يكن هذا المناخ الجاف هو المناخ الذي كان سائداً على الدوام في مصر فمئذ عام ٥٠٠٠ وحتى عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد، أي منذ بداية العصر الحجري الحديث وحتى عصر الأهرامات الكبرى، كان المناخ أكثر رطوبة، والسافانا منتشرة في الصحاري الحالية شرقى النيل وغربه، ويسُرت هذه الرطوبة النسبية الانتقال التدريجي من اقتصاديات الصيادين جامعي الغذاء إلى اقتصاديات المزارعين مربي الماشية. كما فتحت الباب أيضاً أمام عمليات التبادل بين آسيا وإفريقيا وبين النوبة ومصر على حد سواء.

وأخيراً، فقد ترك مناخ أعالي حوض النيل أثراً عميقة في إكولوجيا (أي في علاقة الأحياء ببيئتهم) حوض النيل الأدنى. ولقد سبق أن لاحظنا أن الحياة في مصر مرتبطة كل الارتباط بالفيضان، إن مستوى الفيضان يحدده هطول الأمطار على مرتفعات الحبشة، حيث منابع النيل الأزرق والعبقرة والسباط. وإن الرياح الموسمية التي تهب خلال فصل الصيف قادمة من المحيط الهندي تغذي الهواطل التي تسقط على هضاب الحبشة من شهر مايو وحتى شهر سبتمبر لتصب في النيل الأزرق ورواقه النيل الحبشية، فمن هنا يتطلق الفيضان. بيد أن الأمطار الموسمية غير

ثابتة. وبالتالي يصبح الفيضان متقلباً، سواء من حيث تاريخ بدايته أو من حيث مدته وحجمه. وهذا التقلب كظاهرة مناخية قد دفع سكان وادي النيل المصري إلى أن يقيموا بالتدريج نظاماً للمقاومة، وصولاً إلى التحكم في الفيضان تحكماً فعالاً، فمن بين ثلاثين فيضان تمّ رصدها، تكاد تكون ثلاثة عشر منها فيضانات كافية، ومن ثمّ ينبغي التّأهب تحسباً لفترات «نقص الفيضان»، لاسيما وأن تعاقب الفيضانات السيئة أمر وارد، واضطلعت السلطة المركزية بمهمة الاحتفاظ في الشئون الملكية بمخزون غذائي لمواجهة القحط. وإذا لم تؤمن الحكومة في الوقت المناسب أعمال صيانة النظام الدقيق المتحكم في الفيضان، وهو نظام عرضة للاعطاب، فإن الفيضان يهدد باجتياح كل شئ والعودة بالوادي إلى ماكان عليه في الأصل من أوضاع. فالنظام الطبيعي مشروط في مصر بالنظام السياسي، والقوضى هي دائما مرادف للمجاعة.

وأخيراً، تركت تضاريس البلاد الجغرافية بصمات غائرة في حضارة مصر. فلنتخيل أمبوباً طويلاً لدناً، وقد جهّز أحد طرفيه بقمع مرشحة، تلك هي صورة مصر. وهكذا ندرك أن سكان هذا البلد العجيب قد ميزوا بين الأمبوب، أي مصر العليا وبين القمع أي مصر السفلى، ولا يبلغ عرض الأراضي الزراعية قدراً معقولاً سوى في الدلتا. وإذا انتقلنا إلى الوادي فنجد أن عرضه لا يزيد عن بضعة كيلو مترات، ورغم أن طول مصر يزيد على الألفي كيلو

متر، فإن مساحة الأراضي الزراعية ليست سوى ثلاثين ألف كم^٢ (حوالي ٧ مليون فدان) أو ما يعادل مساحة بلجيكا مع بسطها على ما يعادل ضعف طول فرنسا، وكان لهذه الوضعية أصدأها على حياة البلاد السياسية والإدارية. لقد لاحظنا فيما تقدم نزعة الوحدة والاستقرار كمطلبين ملازمين لضروريات الري وتنظيم الاقتصاد، وفي واقع الأمر فإن مصر شريط بالغ الطول ليس له من طريق سوى النيل، وكان يصعب على الملك أن يراقب السلطة المحلية التي قد تبعد عن عاصمته في بعض الأحيان بما يزيد عن الألف كيلو متر، فيستدعى الوصول إليها أياما طويلة من الملاحة النهرية وذلك في عصر كانت الجياد ذاتها غير معروفة، ومن ثم فما أن يصيب السلطة المركزية الوهن، حتى يتحول حكام الأقاليم، على الفور، إلى عواهل صفار مطلقى الصلاحيات، ومن ثم نرى أن تاريخ مصر معزق بين نزعة تركيز السلطة السياسية استجابة لمطالبات البلاد الحيوية ونزعة التفاتت التي ساعد عليها امتداد مصر الفائق الطول، ومن هنا نشأت أهمية «الأقليم» في حياة مصر، فقد فُرض على الإقليم أن يعتمد في حياته على جهوده الذاتية بالنظر إلى المسافة القصية التي تفصل بينه وبين المركز الإداري، فمصر من حيث الضروريات الطبيعية، دولة على قدر كبير من تركيز السلطة المركزية، كما أنها تقوم في نفس الوقت، على اللامركزية الإدارية، وكنتيجة ثانوية لهذه الأوضاع، تقدمت مصر

بخطى سريعة فى فنونا الملاحة، حيث أن الطرق فى مصر قد اقتصرت على الطرق النهرية، فقد عم استخدام السفن، وأضحت ضرورية، ولو لمجرد العبور من شاطئ إلى آخر، بل يمكن أن نذهب إلى أن الديانة نفسها قد تأثرت بهذه الضرورة الطبيعية، فكان المصريون يعتقدون بالفعل أن الشمس تعبر السماء فى زورق، بل وعلى الصعيد التقنى أيضاً كان لهذا الممكن أصدائه، فاهتمدى المصريون إلى الدفة ذات المرتكز ولكن فى المقابل جاءت العربية ذات العجل من خارج البلاد.

وأخيراً كانت مصر بفضل موقعها عند الطرف الشرقى من القارة الإفريقية نقطة التقاء العالم الأسيوى والمتوسطى بالعالم الإفريقى، وشرع هذا الموقع يؤثر على الحياة السياسية المصرية مع مطلع العصر الفرعونى، وإن لم تثم كل إمكانياته إلا بحلول العصر الحديث، فى أعقاب شق قناة السويس، وتنمية إفريقيا الجنوبية والوسطى، فأضحى وادى النيل والبحر الأحمر أكبر طرق العبور من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق الأقصى وإفريقيا إلى أوروبا، وفى حقيقة الأمر وكما أوضحنا، فقد فرض طول البلاد، سواء على الصعيد السياسى أم على الصعيد الإدارى، أن تتوسط العاصمة إلى حد ما البلاد، بحيث تصل سلطة فرعون إلى الوادى من أقصاه إلى أقصاه نون معوقات تذكر، ونزع هذا المركز الحيوى منذ العصر الثينى، بل ومنذ عصور ما قبل التاريخ على ما

يظن، إلى التمرکز فی منطقة منف، علی مقربة من مدينة القاهرة - الحالية، وبالفعل نجحت الإدارة الملكية انطلاقاً من هذه النقطة، فی مراقبة الدلتا وأمالی الوادی علی حدّ سواء. وعندما أقام فراغة الدولة الحديثة عاصمتهم فی طيبة كانوا يهدفون من بین ما يهدفون إليه، أن يقتربوا أكثر فأكثر من النوبة، بعد أن توسعت فیها مصر كثيراً وهي التي كانت تمدّ مصر بالوسائل الضرورية - من بشر و مواد أولية - لتحقيق السياسة التوسعية التي تبنتها، وأسوء الحظ كان موقع طيبة ينطوی علی عقبة كأداء بالنظر إلى بعدها الكبير عن الدلتا، غیر أن مصر بدأت مع بداية الدولة الحديثة تعاني من الأضرار الناجمة عن موقعها عند ملتقى طرق العالم، عندئذ كانت امبراطوريات آسيا فی أوج نشاطها التوسعی وشرعت تصبّطدم بمصر، ولكن سرعان ما لاحت فی الأفق مسيرة الموجة الهند و - أوروبية الثانية، قادمة من الشمال إلى الجنوب، فحطّت فی الأخرى رحالها عند السواحل المصرية، وهكذا بدت مصر مهددة من ناحيتين عند جبهتها المتوسطية، واضطرت دفاعاً عن نفسها أن تحشد قواتها فی الدلتا، وهكذا نشهد، اعتباراً من الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين بصفة خاصة، تحركاً لمركز ثقل مصر الذي جنح إلى الاستقرار فی الدلتا، ويمكن القول أن الانحطاط البطيء الذي بدأ فی هذه الفترة يرجع إلى عجز مصر عن إصلاح نظمها الداخلية، ولقد اقتضت الظروف أن يكون

مركزها السياسي أقرب ما يمكن من البحر المتوسط الذي أضحي مفترق طرق العالم القديم، كما اقتضت الظروف أن تتواجد مصر عنده بكل ما أوتيت من قوة، أى بكل ما تجلبه من موارد تجنيها من إفريقيا، وإذا كان الفراعنة قد أدركوا ضرورة إقامتهم في الدلتا، فقد عجزوا عن الحفاظ على وحدة البلاد التي كانت تستطيع وحدها أن تمكن مصر من الاضطلاع بدور فعال في العالم الجديد الذي بدأ يتضح للعيان. ومن ثم فإن ظرفاً جغرافياً - وهو وجود مصر ضمن عالم البحر المتوسط - قد فرض انتقال عاصمة البلاد صوب الشمال قدر المستطاع، وإضافة إلى ذلك، فإن ظرفاً جغرافياً آخر - وهو طول القطر - البالغ الامتداد - قد أعاق الفراعنة عن حكم البلاد حكماً فعالاً من مقرهم في الدلتا وأن يبسطوا نفوذهم بصفة خاصة على الممتلكات الإفريقية، مصدر قوة مصر. وبعد أن انحصرت مصر في واجهتها المتوسطية فحسب، لم يعد في وسعها سوى أن تلعب دوراً ثانوياً على مسرح التاريخ في العالم القديم، ومن ثم زخر عالم مصر بالمفارقات، فنرى جذب الصحراء يبرز ثراء الوادي، ويقف امتداد البلاد الذي لا حد له كتنقيض للوحدة التي فرضتها ظروف الحياة، ويشكل هذا العالم «خلفية» فريدة في بابها للمجتمع الذي كان مقدراً له أن ينشأ على أرضها، ليزدهر قبل أن يندثر، وكان هيرودوت يدرك كل ذلك جيداً حين استهل كتابه في التاريخ بهذه العبارة: «إن

المصريين الذين يعيشون في ظل مناخ فريد، وعلى ضفاف نهر
ينفرد بخاصية تميزه عن غيره من الأنهار، قد اتسموا أيضاً في
كل شيء تقريباً، بعادات وتقاليد هي على النقيض من عادات
وتقاليد غيرهم من بنى البشر، وكان من الضروري التأكيد على
أهمية هذه البيئة حتى يمكن فهم هذا المجتمع الذي سوف نتناول
الآن عناصره البشرية بالدراسة.

٤ - السكان

منذ العصر الحجري القديم الأدنى، وكلما عدنا إلى الوراء في
غياهب ما قبل تاريخ الإنسانية بصفة عامة، نجد أن الإنسان قد
سكن وادي النيل، ولكن من الصعب معرفة الأصول العرقية لسكان
الوادي الأوائل، فالنذر القليل الذي وصلنا من بقايا العظام
البشرية لا يساعد، في واقع الأمر، على التوصل إلى نتائج لا
تقبل الجدل حول أصولها الإثنية، كما لا يسعنا أن نعرف مدى
استمرارية هذا الفرق بين غيره من الأعراق التي سكنت وادي
النيل خلال العصر الحجري الحديث. وبالفعل فإن نهاية العصر
الحجري القديم الأعلى - حوالي عام ١٥٠٠٠ ق.م تتزامن ومرحلة
ساد فيها مناخ جاف مناطق إفريقيا الشمالية والشرقية، عندئذ،
فإن القبائل الرحل التي كانت ماتزال هائمة في سافانا الصحراء
الكبرى، قرب نهاية العصر الحجري القديم وخلال العصر الحجري

القديم وخلال العصر الحجري الوسيط، شرعت تميل إلى الهجرة، لتتمركز حول نقاط الماء. وفي هذا العصر على ما يظن تشكل الرصيد البشرى الذى أعمر مصر، فجاء بالأحرى أقل تجانساً، لاسيما بعد وقوع موجة أخرى من الهجرات الوافدة من الصحارى حوال عام ٢٤٠٠ ق.م، مع حلول طور جديد من الجفاف فى أعقاب الطور الرطب للدور دون المطير للعصر الحجري الحديث. ومن ثم فإن سكان مصر لم يشكلوا أبداً عرقاً نقياً. وإذا نظرنا إلى أصولهم فإنهم أساساً من عرق إفريقي. ويبدو بالفعل أن عنصرهم السائد ظل دائماً قريباً من غيرهم من سكان شمال وشرق إفريقيا، نذكر على سبيل المثال البجا فى شرق إفريقيا والبربر فى ليبيا. بل إن هذا الرصيد ذاته لم يبق نقياً، فقد اختلطت به بلا شك عناصر سامية منذ وقت باكر جداً، سواء جاءت من الشمال عبر سيناء أم من الجنوب عبر البحر الأحمر والصحراء الشرقية.

وقديماً كان البعض يفضلون أن يبالغوا فى تقدير الإسهام السامى ولكتنا نجد أنه قد اتصهر فى حقيقة الأمر فى الكتلة العامة. كما ينبغى إضافة بعض الإسهامات السوداء والنوبية وإن ظلت محدودة الأهمية على ما يبدو. فالسكان منذ مطلع الدولة القديمة كانوا يتكونون من كتلة ذات تكوين واضح، تسربت إليه بعض العناصر السامية والنوبية. ولن يتغير السكان إطلاقاً على

امتداد آلاف السنين، ومن الشائع أن نشاهد هذا النمط القديم في ملامح الفلاح المعاصر. ومن ثمّ يمكن القول أن سكان مصر أفارقة في مجملهم وأفارقة بيض، وما تسرب إليهم من عناصر سامية من ناحية، وعناصر سوداء من ناحية أخرى، لم تكن أبداً من الكثرة بحيث تبدل من المظهر العام.

ومن الصعب، بل من المستحيل تحديد عدد سكان مصر القديمة. ولكن استناداً إلى الوثائق اليونانية الرومانية، هناك شبه إجماع على أن عددهم كان يناهز السبعة ملايين نسمة. ومع ذلك ينبغي اعتبار هذا الرقم حداً أقصى. فقد شهد تاريخ مصر فترات زيادة في السكان، عرفت بتأسيس مدن جديدة، كما شهد في المقابل فترات إفقار من السكان، نجد صداها في بعض النصوص، فنقرأ في أحدهما: «أجل إننا نفتقر إلى النساء فلا حمل ولا هبل». وعلى أية حال وبالنظر إلى تعداد سكانها المنخفض نسبياً، فإن مصر تتفق في هذه النقطة كل الاتفاق مع حضارات العصر القديم الكلاسيكي. بيد أن هذا الفقر الديموجرافي سوف يشكل عقبة كأداء أمام مصر عندما ستواجه تكتلات الأحلاف الآسيوية.

٥ - اللغة والكتابة

إذا تركنا جانباً القسمات البدئية العرقية، فإن اللغة هي السمة

المميزة لشعب من الشعوب، فما أصول اللغة المصرية إذن؟ ظل المتخصصون يتجادلون لفترة طويلة بين قائل بأصولها السامية وآخر يرى أن أصولها إفريقية، بل وذهب البعض إلى افتراض أن أصولها أقيانية! أما اليوم فيسود شبه اتفاق على أن المصرية والكوشية (اللغات السودانية) والبربرية واللغات السامية، تشكل كل منها مجموعة مستقلة عن الأخرى، وإن كانت جميعها مشتقة من لغة قديمة مشتركة، وهو ما يفسر، في ذات الوقت، ما نلاحظه من أوجه شبه عديدة بين المجموعات المختلفة وبالتحديد بين المصرية واللغات السامية وبين البربرية والمصرية، وهو ما يجعلنا أيضاً في غنى عن الافتراضات التي كانت قد ظهرت - وعلى رأسها افتراض الغزو - والتي تكونت في الماضي لتفسير أوجه الشبه هذه، ومن ثم ينتمي المصري إلى غيره من شعوب إفريقيا البيضاء من حيث القسمات البدنية ومن حيث اللغة، على حد سواء.

تواترت إلينا اللغة المصرية كتابة منذ العصر الثيني، أو حوالي عام ٣١٠٠ ق.م، ولذا تعتبر من أولى كتابات البشر المعروفة، ومن المفيد أن نطل عليها إطلالة سريعة، لقد سبق أن ألقينا نظرة على تاريخ فك رموزها، وعلى رأس ما يشدنا إلى هذه الكتابة أنها نشأت نشأة محلية أصيلة، فلم تستعز كل ما استخدمه من علامات هيروغليفية من عالمي الحيوان والنبات في وادي النيل فحسب، وهو برهان على أن ظهورها ونموها كانا ظاهرة محلية، بل تصور هذه

العلامات أيضاً بعض الأوتار والأوانى التى كانت تستخدم فى مصر منذ العصر الأدنى للحضارات النحاسية الحجرية، وهو دليل على أن الكتابة هى بالقطع نتاج الحضارة المصرية بون غيرها، وأنها قد نشأت على ضفاف النيل. وقد وصلتنا الكتابة فى ثلاث صور مختلفة، يطلق على الأولى اصطلاحاً الهيراطيقية، وكانت وقفاً على الأنصاب والعمائر، فتدون كل علامة بمفردها مع الاهتمام الفائق بتفاصيل الرسم. فالطائر على سبيل المثال لا يشار إليه بخطوطه الجانبية وحسب، بل بثتى ملامحه الداخلية أيضاً مع توضيح الأجنحة والعينين والمخالب الخ.. وغنى عن البيان أن تدوين هذه الكتابة كان يستغرق وقتاً طويلاً، حتى مع اختزال الرسم، لأن الكلمة الواحدة قد تتكون من خمس أو ست علامات مختلفة، ومن ثم فقد استخدم المصريون منذ أقدم العصور كتابة مختصرة، تعرف اصطلاحاً بالهيراطيقية (راجع الشكل رقم ١). وهى الكتابة التى اعتمدها غالبية النصوص الأدبية والإدارية والقانونية المصرية التى بين أيدينا. وأخيراً، فقد تم اختصار الهيراطيقية بدورها فى العصر المتأخر، فنشأت الديموطيقية، والتطور الذى طرأ على العلامات الديموطيقية بلغ حداً يستحيل معه التعرف على النماذج الهيراطيقية الأصلية، استخدم الخط الديموطيقى فى تدوين العديد من الوثائق القانونية الهامة التى تعتبر غالباً مصدرنا الوحيد عند دراسة بعض المؤسسات، ومن



علامات هيراطيقية متعقبة
(الأسرة ١٨)



علامات هيراطيقية بسيطة
(الأسرة ١٢)



الهيراطيقية (الأسرة ٢٠)

الهيراطيقية (الأسرة ٢٠) من القرن الثالث ق. م.

الهيراطيقية (القرن الثالث ق. م.)

شكل رقم ١

الملاحظ أن الكتابة المصرية القديمة، سواء بالخط الهيروغليفي أو الهيروغليفى أو الديموطيقى - لم تتطور أبداً وظلت متمسكة بأصولها الأولى، رغم ما تمتلكه من علامات بسيطة، ولم تتحول أبداً إلى الكتابة الألفبائية، شأنها شأن الفينيقية واليونانية واللغات الحديثة. فنظام الكتابة المصرية تركيب معقد فى واقع الأمر، فمن ناحية، كان يوسعها على النوام ان تصور الماديات بصورها، فإذا أردنا كتابة كلمات مثل مجداف وقوس ومحراث الخ.. يكفى أن نرسم مجدافاً وقوساً ومحراثاً. ويعرف هذا الضرب من الكتابة بالخط التصويرى، وشاع استخدامه فى الكتابة المصرية على مرّ العصور. بيد أن الخط التصويرى لا يصلح للتعبير عن كل شئ، فعلى سبيل المثال كيف يمكن تصوير الأفعال كالمشى والعنو والصعود أو الكلمات المجردة كالفكر والحب الخ.. والخروج من هذه المشكلة، طبق المصريون قاعدة اللغز المصور، فقاموا بتفكيك الكلمات المجردة إلى عناصرها المكونة التى يمكن تمثيلها بأشياء لها صوت مماثل، ولتوضيح الأمر نختار مثلاً باللغة الفرنسية. كيف نكتب إذن كلمة DÉTOURNER - معناها: أدار (رأسه) - يبدل الاتجاه - حول (نظره) - بالإعتماد على سبيل الأسلوب المصرى، يمكن أن نقسم الكلمة إلى ثلاثة عناصر ونرسم على التوالي «نرد» "DÉ" ثم برج "TOUR" وأخيراً أنف "NEZ". (راجع شكل ٢ وشكل ٣). انه مبدأ الكتابة الهيروغليفيه ذاته كما استخدم

في العصر الثيني لكتابة أسماء الأعلام - ولكن هذا النظام كان في حاجة إلى إضافات حتى يصبح صالحاً للاستخدام، وبإحدى ذى بدء، قد تكون العلامة كقيمة صوتية مصدر غموض والتباس، فقد يفسر القارئ على سبيل المثال صورتي البرج والأنف تفسيراً خاطئاً ويقرأهما «قلمة» و«فتحة الأنف» مثلاً. وتجنباً لهذه الأخطاء أضاف المصريون علامة هجائية وضعوها أمام العلامة المقطعية أو خلفها لتحديد قراءتها، وقياساً على ذلك سنضع حرف "T" أمام "TOUR" وحرف "Z" بعد "NEZ" وأخيراً كانوا يذهبون الكلمة بعلامة لا تقرأ وإن كانت تحدد القراءة المطلوبة بالإشارة إلى المعنى للكلمة، من خلال فكرة، كفكرة الحركة على سبيل المثال أو الشيفوخة أو القوت الخ.. وكانت هذه العلامات محددة بشكل ثابت ونهائي، وإذا عدنا للمثال الذي ضربناه لأضفنا إلى الرسومات السابقة رجلاً يدبر رأسه توضيحاً لفكرة «أدار» التي تنطوي عليها الكلمة التي كتبناها صوتية، فالكتابة المصرية تشمل إذن علامات صوتية على غرار حروفنا الهجائية إلى جانب العلامات التصويرية التي لا يوجد ما يناظرها في لغاتنا، وإن ظلت الكتابة الصينية محتفظة بها، وإضافة إلى ذلك تتكون بعض العلامات الصوتية بنورها من حرفين ساكتين أو ثلاثة حروف ساكنة للرسم الواحد. إنها العلامات المقطعية (راجع شكل ٤)، ويعتبر نظام الكتابة الهيروغليفية مرناً جداً، إذ يمكن أن تبدأ

الكتابة من اليمين أو من اليسار، على حد سواء، بل وأيضاً من أعلى إلى أسفل، وهناك ما يشبه الإملاء، وتيسر الذاكرة عملية القراءة، وأخيراً، نجد أن العلامات المقطعية وهي كثيرة جداً، (إذ تبلغ عدة مئات من العلامات الشائعة)، يلحق بها دائماً علامة هجائية واحدة أو اثنتان أو ثلاث، تعزيزاً لها ومعيناً على القراءة. بيد أن المصري لم يصل إلى حد اختراع الكتابة الهجائية كما نعرفها اليوم. ولم يكتف وحسب برفضه القاطع التخلي عن العلامات التصويرية والعلامات المقطعية وصولاً إلى اكتشاف الأبجدية، بل يبدو واضحاً أنه ابتعد عنها، أكثر فأكثر. لقد تباعدت الكتابة المصرية في العصر المتأخر عن الكتابة الهجائية، بعد أن ضاعت من العلامات المستخدمة، وفي مقدمتها العلامات التصويرية، بالمقارنة مع كتابة الدولة القديم التي لم تسرف في استخدام العلامات. وأخيراً، لم تُقدِّم الهيروغليفية والديموطيقية على تبسيط الكتابة بحذف العلامات غير الضرورية لكنها استخدمت خطأً يوفر كتابة أسرع. أما بالنسبة لقواعد اللغة فتتميز المصرية بأن موضع كل كلمة من كلماتها، له ترتيبه الصارم الذي لا يحدد عنه، فتتعاقب الكلمات في المعتاد على النحو التالي: الفعل فالفاعل ثم المفعول المباشر وأخيراً المقاعيل غير المباشرة. إن حالات الإعراب كما عرفت اليونانية واللاتينية لا وجود لها في المصرية، ولكنها تنفرد بمشكلة خاصة بها، ألا وهي، أنها تفتقر

إلى أدوات العطف والوصل. ويوجد المرء صعوبة في تحديد الرباط،
الذى يربط الجملة بما يسبقها أو يليها.
بعد أن تم فك رموز الكتابة أصبح فهم الوثائق المصرية القديمة
متاحاً وباتت تكون في الوقت الراهن أهم مصادر التاريخ المصري
وهي مصادر شديدة التنوع، وتضم: مسارد السير الذاتية
المنقوشة بالهيريوغليفية على اللوحات الحجرية وسطوح جدران
مقابر الأفراد، والمسارد الرسمية للحملات الملكية وقد نحتت في
الغالب على جدران المعابد، والقوائم الملكية المدونة على ورق البردي
أو المنقوشة على الحجر، والنصوص الأدبية أو الإدارية المكتوبة
بالخط الهيراطيقى على ورق البردي أو الألواح الخشبية الصغيرة
أو أخاف الفخار أو الحجر (الأوستراكا). كما أن هذه المصادر
هي أحياناً مجرد أسماء حفرت على أشياء صغيرة أو جعارين أو
تمائيل صغيرة. وبفضل هذا الحشد من الوثائق، أمكن إعادة كتابة
تاريخ مصر كما سنعرضه الآن.

الباب الثاني تاريخ مصر

قبل حوالي مائة سنة كان كل ما نعرفه عن تاريخ مصر يتلخص فيما نقله إلينا بعض الكتاب الإغريق الذين سجلوا بعض أسماء الفراعنة وسربوا عنهم نوادر - كانت أغلبها فاضحة، كما كان بين أيدينا ما تبقى من مصنف ماننتون، وهو عبارة عن قائمة ملوك مصر موزعة على ثلاثين أسرة، وما عدا ذلك كنا لا نعلم شيئاً، إن اكتشاف شمپوايون قد سمح فيما بين ١٨٢٢ والوقت الراهن بشغل الإطار الفارغ الذي وصل إلينا، وهكذا غدا تاريخ مصر حقيقة واقعة، وعلى أساس ما قلناه، فإنه لا ينبغي مع ذلك أن نعتقد أن ما نعرفه عن تاريخ مصر يماثل ما نعرفه عن تاريخ روما أو اليونان على سبيل المثال، فليس أمامنا من سبيل عند إعادة صياغة تاريخ مصر سوى الاعتماد على القوائم الملكية التي خلفها المصريون، والآثار القائمة التي قاومت عوادي الزمن أو التي عثر عليها أثناء أعمال التنقيب، وفي أحسن الأحوال، وصلتنا المسارد التي خلفها

ملوك مصر عن أعمالهم الخاصة، ولكن الرواية التاريخية، بما للفظ من معنى دقيق في الوقت الراهن، لا وجود لها على الإطلاق، ومن ثم فالتاريخ الذي يعاد صياغته هو تاريخ جاف ضئيل جداً. وأغلب ماتوصلنا إليه لا يتعدى أسماء وتواريخ، هي عناصر هشة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه التواريخ من ناحية هي أحياناً افتراضية إلى حد كبير، وأن ترتيب خلافة الملوك غير موثوق فيه من الناحية أخرى، وبالكاد نجحت بعض الشخصيات التي عرفت بسعة نفوذها أن تطفو على سطح الرقابة المتجانسة التي مازالت تغلف الكثير من عهود فراعنة مصر. وبالطبع قد يقول البعض أن الكثير من هؤلاء الملوك المجهولين لم يشكلوا أبداً سوى أهمية نسبية. وعلى سبيل المثال، فماذا يضير تاريخ فرنسا أن شخصيتين مثل «شيليدريك» الثالث Childeric III أو «فرانسوا» الثاني François II اختفيا تقريباً دون أن يتركا من أثر في ذاكرة الإنسانية سوى اسم وتواريخ بداية حكمهما ونهايته. أما بالنسبة لمصر، فالأمر أشدّ خطورة. وهل يمكن أن نتصور تاريخاً لفرنسا لا ينبس بكلمة واحدة عن «حرب المائة عام» أو «الحروب الدينية» أو ثورة ١٧٨٩، تاريخاً يكتفى بما يقدمه من معلومات عن القديس لويس (التاسع) وفيليب أغسطس وفرانسوا الأول، ثم عهود هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر لينتهي بعصر الإمبراطورية، ويفتقر إلى وثيقة واحدة قد تلقى الضوء على

مايتخللها من فترات، وإذا أمكننا تصور مثل هذا التاريخ لتوصلنا إلى صورة تشبه إلى حد كبير تلك التي نعرفها عن تاريخ مصر في الوقت الراهن، إن العصور المجهولة جهلاً مطبقاً أو شبه المجهولة تشكل قرابة ثلثي تاريخ مصر، ومن بين الأسرات الثلاثين التي ذكرها مانتون فإننا لا نعرف منها بالقدر الكافي سوى إحدى عشرة فقط، وبطبيعة الحال، تتقف عصور الانتقال والاضطرابات التي لا نعرف عنها شيئاً أو تكاد، على رأس قائمة ماكننا نود معرفته، وإذا غضضنا الطرف عن هذه الثغرات عندما نتناول تاريخ مصر بالدراسة، لرأينا من منظور يخالف واقع الأمر، ففي مصر كما هو الحال في أي مكان آخر، كانت عصور النظام والإشعاع المضاربي أكثر ندرة، بينما عصور الإضطراب والفوضى التي تفتقر إلى الشموخ والعظمة هي الأطول، وربما أظن هذه الأخيرة على الأولى، وجهلنا بها يسدّ الطريق أمام إمكانية فهم عصور الازدهار فهماً تاماً.

منذ مانتون، والملوك الذين حكموا مصر يناهز عددهم المائة وأربعة وتسعين ملكاً، يوزعون على ثلاثين أسرة، لكن ينبغي في هذا الصدد أن نتناول لفظ أسرة بمعناه الضيق، فلا يعنى انتساب عدد من الملوك إلى أسرة واحدة، أنهم ينحدرون من جد واحد، كما أننا لا نلاحظ في كثير من الأحيان علاقة القرابة التي تربط أحد الفراعنة بخليفته، وأخيراً فإن مختلف الأسرات ليست كلها على

نفس القدر من الأهمية فبعضها وهمية كالأسرة السابعة، أو عاصرت بعضها البعض الآخر كالأسرات الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين والخامسة والعشرين، ولا تضم غيرها سوى عدد محدود من الملوك، فتتكون الأسرة الثامنة والعشرون من ملك واحد، والرابعة والعشرون من ملكين، في حين تناهز غيرها من الأسرات العشرة ملوك كالأسرة الرابعة عشرة التي تضم أربعة عشر ملكاً، وبالنظر إلى ما يصادف المرء من صعوبة إيجاد طريقة عبر هذا العدد الهائل من الملوك الذين لا نعرف عن معظمهم سوى الاسم، قسّم العلماء تاريخ مصر إلى أربعة عصور كبيرة : الدولة القديمة وتضم الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، والدولة الوسطى وتضم الأسرتين الحادية عشرة والثامنة عشرة، والدولة الحديثة وتضم الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، وأخيراً العصر المتأخر الذي يبدأ بالأسرة الحادية والعشرين ويمتد حتى الغزو اليوناني، أما كبرى عصور الاضطراب فهي: ١ - العصر الفاصل بين الدولة القديمة والدولة الوسطى، وهو عصر ثورات اجتماعية وحروب أهلية ويمتد من نهاية الأسرة السادسة وحتى منتصف الأسرة الحادية عشرة، ويطلق عليه عصر الانتقال الأول. ٢ - العصر الفاصل بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة وهو عصر حروب أهلية وغزو أجنبي، ويطلق عليه عصر الانتقال الثاني أو عصر الهكسوس على اسم الغزاة، أما الأسرتان الأولى والثانية اللتان تكوّنان ما يعرف

بالعصر الثيني، نسبة إلى عاصمة البلاد، فقد وضعتنا على حدة وترتبطان عادة بالفترة التي تعرف اصطلاحاً بعصر ما قبل الأسرات الذي يسبق مباشرة الاتحاد التاريخي لمصر. وعلى كل حال فمن الصعوبة بمكان أحياناً أن نميز بين هاتين الأسرتين الأوليين وعصر ما قبل الأسرات وبين عصر ما قبل التاريخ بمعنى الكلمة. فكل ما نعرفه عنها مستمد من أشياء بسيطة أو مهنات قصيرة وهي القاب أو أسماء أعلام لا تقدم سوى القليل عن تاريخ هذه الفترة. وأخيراً ظهر في السنوات الأخيرة اتجاه إلى الفصل بين «الدولة الحديثة» و«العصر المتأخر» بعصر انتقال ثالث، يضم الأسرات الحادية والعشرين والثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين. ونظراً لحدود هذا الكتاب المتواضعة اضطررنا إلى تناول تاريخ مصر في عجلة سريعة وسنعرض له في الإطار المختصر لثلاثة أقسام أكثر شمولاً. أما القسم الأول وعنوانه العصور المظلمة فيغطي الفترة الممتدة في العصر الحجري الحديث إلى نهاية الأسرة الثانية. والقسم الثاني عنوانه مصر الكلاسيكية ويتناول بالدراسة الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة. وأخيراً يتناول القسم الثالث وعنوانه عصر الانحطاط الفترة الممتدة من الأسرة العشرين إلى ما قبل قزق الاسكندر لمصر.

الفصل الأول العصور المظلمة (ما قبل التاريخ - العصر النينى)

١ - الترتيب الزمني.

المشكلة الأولى التي تواجهنا بشأن هذا العصر الموهل في القدم هي مشكلة الترتيب الزمني، فمتى بدأ على وجه التحديد التاريخ والحضارة في مصر؟ وللوصول إلى حل لهذه المشكلة لا نمتلك سوى عناصر قليلة. وبالفعل لم يسجل المصريون على آثارهم، كما هو حالنا الآن، نظام ترتيب زمني موحد لتقويم متصل، فلا يقولون مثلاً «العام ١٦٢٠، في عهد الملك فلان...» بل: «العام الرابع من حكم الملك فلان...» وكلما اعتلى ملك جديد العرش يبدؤون من جديد في العام الأول... وترتيباً على ذلك فمجرد تحديد تاريخ اعتلاء أول ملك معروف عرش البلاد بالاعتماد على الحسابات المصرية، يتطلب منا معرفة مدة حكم جميع الملوك الذين حكموا مصر. غير أننا لا نعرف فحسب مدة كل حكم على حدة وعلى وجه اليقين، بل نجد حلاوة على ذلك أن عدداً من الملوك في فترات الاضطراب، قد تولوا الحكم معاً وفي آن واحد، ومن ثم فالاعتماد على مجرد عملية جمع مدد الحكم المعروفة، لن يؤدي سوى إلى بيانات مضللة، ولكن لحسن الحظ اعتمد المصريون

حساب السنة الشمسية عندما قاموا رسمياً بتقسيم الزمن إلى فصول وشهور وأيام، كما اعتمدوا أيضاً حساباً قمرياً للأعياد الدينية، تتكون السنة الشمسية من اثني عشر شهراً والشهر من ثلاثين يوماً يضاف إليها أيام النسيء الخمسة، التي أطلق عليها الإغريق إيباجومينوس épangomènes - ومن ثم يصبح مجموع أيام السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، تلك هي القاعدة التي تنهض على أساسها جميع حسابات الترتيب الزمني المصري الحديث، وفي الحقيقة كانت السنة المصرية أصلاً سنة زراعية على ما يفترض، وكانت بداية السنة تتفق واليوم الأول من أيام الفيضان وهو وضع منطقي في بلد يتوقف كل شيء فيه على النيل، ومن المحتمل أن تحركات النيل كانت في بداية الأمر الأساس المعتمد الوحيد لحساب السنة المصرية، ولكن سرعان ما لاحظ المصريون - وربما منذ عصر ما قبل التاريخ - أن يوم بدء الفيضان يتفق أيضاً مع حدوث ظاهرة فلكية، إذ يتزامن في هذا اليوم ظهور نجم الشعري اليمانية في الأفق مع الشمس، وهذا النجم يُعرف عند الإغريق باسم «سوتيس» و«سيرْيوس» عند علماء الفلك المعاصرين، عندئذ اعتبرت هذه الظاهرة مثل ظاهرة الفيضان نقطة بدء السنة، ومن الآن فصاعداً حدثت ظاهرتان بدء السنة المصرية، إحداهما طبيعية وترتبط بالفيضان وهي غير دقيقة إلى حد ما، والأخرى فلكية وترتبط بتزامن ظهور نجم في

الأفق مع الشمس في آن واحد، غير أنه، كما اتضح لنا، كانت السنة المصرية تتكون من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، في حين نعلم أن السنة الشمسية الحقيقية تتكون من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم. فالسنة المصرية تتأخر أربع وعشرين ساعة عن السنة الشمسية الحقيقية كل أربع سنوات، ومن ثم إن التزامن الظاهر الثلاث، وهي شروق الشمس وشروق الشعري اليمانية وبداية الفيضان، في آن واحد على رأس السنة المصرية إلا بعد إنقضاء ستين وأربعمائة وألف سنة، وهو ما يعرف بدورة الشعري اليمانية، ومن ثم كان علماء الفلك المعاصرون لا يحتاجون إلا إلى أن يحددوا عدد مرات تزامن الشروق الاحتراقي للشعري اليمانية فعلاً مع بداية شهر يوليو - أي بداية الفيضان - عند خط عرض منف، حتى يهتدوا إلى التاريخ الذي يفترض أن المصريين قد بدؤوا عنده حساباتهم، وحدث هذا التطابق ثلاث مرات على امتداد الخمسة آلاف سنة السابقة على ميلاد المسيح: (١) في السنوات ١٣٢٥ - ١٣٢٢ ق.م، أيام الأسرة التاسعة عشرة (وكان الكتبة المصريون قد سجلوا هذا التطابق). (٢) في السنوات ٢٧٨٥ - ٢٧٨٢ ق.م، قرب نهاية العصر الثيني. (٣) في السنوات ٤٢٤٥ - ٤٢٤٢ ق.م في غياهب ما قبل التاريخ، وظن البعض أنهم لاحظوا وجود إشارات إلى السنة الشمسية في «متون الأهرام». وللأسف يصعب تحديد تواريخ هذه المتون بكل ثقة. وربما كانت

مؤجلة في القدم ومن ثم «تصبح الإشارة إلى السنة الشمسية دليلاً على أن هذه السنة كانت مستخدمة قبل عام ٢٧٨٥. مع ترجيح عملية اكتشاف التقويم إلى ثورة الشعري اليمانية السابقة أي عام ٤٢٤٥، على وجه التقريب، ولكن بالنظر إلى أننا لم نعرف هذه المثون إلا من خلال نسخ تعود إلى عام ٢٤٠٠، فمن المحتمل أيضاً أن العمل بالسنة الشمسية التي تشير إليها المثون قد بدأ قبل ثلاثة قرون من الزمن أي حوالي عام ٢٧٨٥. وقد ساد اعتقاد شبه عام على أن التقويم الشمسي قد رأى النور فيما بين ٤٢٥٤ و ٤٢٤٢ قبل الميلاد. أما فكرة أن المصريين ربما لم يأخذوا به على ما يظن، قبل عام ٢٧٨٥، فلم تظهر إلا منذ عهد قريب جداً. وكانت خصوصيات التقويم المصري ذات فائدة عظيمة للباحث، وبالفعل وبمرور الزمن أخذت الفوارق بين السنة الفلكية المضبوطة ضابطاً دقيقاً والسنة التي اعتمدها المصريون يزداد خطورة، فبعد أن كان أسبوعاً، صار شهراً ثم شهرين حتى انقلبت فصول السنة وتزحزحت ليقع صيف التقويم الرسمي في قلب الشتاء الحقيقي. وضحى عن القول أنه كان من الصعب الا تسترعى هذه الظاهرة الفريدة انتباه الكتبة المصريين، فقد وصلتنا نصوص تسجل ملاحظتهم عن الفارق بين الشروق الاحتراقي للشعري اليمانية وبداية السنة الرسمية (لاسيما وأنها كانت تعين المصريين على تحديد الأعياد الملكية). وساعدت ملاحظات الكتبة علماء الفلك

المعاصريين في تحديد تواريخ للمراجعة والتحقق، وهكذا أمكن تحديد تاريخ سنوات حكم بعض الملوك بكل يقين: ومنهم أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة (سنوسرت الثالث) وملكان من ملوك الأسرة الثامنة عشرة (امنحوتب الأول وتحوتمس الثالث).

وقصارى القول، وبفضل الترتيب الزمني القلبي، فإننا نعرف عن يقين تواريخ سنى حكم ثلاثة من ملوك مصر والتواريخ المحتملة لبدء التقويم في مصر، وإذا وقفنا بين التواريخ التي حصلنا عليها عن طريق علم الفلك وبين التواريخ التي توفرها لنا قوائم الملوك (قوائم مانتون وقوائم الوثائق المصرية) وسلسلة الأنساب والتزامن مع تاريخ الشعوب المجاورة لمصر، اهتدينا إلى تحديد مستهل القرن الثلاثين قبل الميلاد كبداية لتاريخ مصر. وقد امدنا المنهج الحديث المعروف باسم «الكربون - ١٢١٤ أو الكربون المشع» وسيلة للتحقق من الترتيب الزمني التقليدي، وهو منهج يصعب تجاهله لمعرفة أقدم تواريخ مصر عهداً، ويستند هذا المنهج إلى المبدأ القائل بأن كل كائن حي يحتوى على كمية محددة من الكربون المشع، وأن هذا النشاط الإشعاعي يتناقص، إعتباراً من وفاة الفرد، وفقاً لمنحنى ثابت أمكن حسابه. وبالنظر إلى أن النشاط الإشعاعي الطبيعي للكائن الحي معروف، فإذا أردنا تحديد عمر عينة محددة، فما علينا سوى أن نحسب مقدار نشاطها الإشعاعي، ومن العينات المستخدمة البقايا العضوية: من

أخشاب ونباتات وشعر ولحم وعظام متكلسة وأصواف الخ.. التي تم العثور عليها أثناء الحفائر. وبفضل رفع كفاءة الأساليب التقنية المستخدمة، جرى حديثاً (١٩٧٦) إعادة تقييم تغييرات تواريخ «الكربون - ١٤» (ك ١٤) ومراجعتها. واتضح أن تواريخ ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات تعود إلى أزمنة أبعد مما كان يظن من قبل، وهي بالنسبة لمصر على النحو التالي حسب الترتيب الزمني المطلق:

النيوم «ب» (الحجري الحديث) حوالي ٥٧٠٠ - ٤٢٠٠ ق.م

العمري (الحجري الحديث) حوالي ٤٠٠٠ - ٣٥٠٠ ق.م

تقادة ٢ (ما قبل الأسرات) حوالي ٣٥٠٠ - ٣٣٠٠ ق.م

حماكا (الأسرة الأولى) حوالي ٣٠٠٠ ق.م

سنفرو (الأسرة الرابعة) حوالي ٢٨٠٠ ق.م

سنوسرت الثالث (الأسرة الثانية عشرة) حوالي ١٨٠٠ - ١٧٠٠ ق.م

إن التواريخ التي نتوصل إليها، على هذا النحو لتؤكد في مجملها صحة الترتيب الزمني الذي سبق الأخذ به، اعتماداً على ما يعرف اصطلاحاً بتواريخ الشعري اليمانية. إن تحديد عام ٣١٠٠ ق.م كتاريخ لبداية الحقبة التاريخية في مصر، وإن أيدته أساليب البحث الحديثة، لا ينبغي أن يخدعنا، فهو تاريخ تقديري واصطلاحى، يحدد البداية فحسب، وهي ليست بداية الكتابة على كل حال، بل هي على وجه التحديد ظهور أقدم الآثار المكتوبة

المعروفة. إن حضارة مصر هي في واقع الأمر أقدم عهداً من هذا التاريخ، فعدم اكتشاف وثائق مكتوبة سابقة على ٣١٠٠ ق.م، لا ينهض دليلاً على أن مصر لم تكن بلداً متحضراً قبل هذا التاريخ. فمفهوم الحضارة يختلف عن مفهوم الكتابة، بل قد يصل بنا الأمر، إلى القول بأن أهم الأزمنة بالنسبة لتاريخ الحضارة في وادي النيل هي تلك الفترة الممتدة من الألف الخامس وحتى عام ٢٧٨٠، الذي يسجل بداية الدولة القديمة. وبالفعل تشكلت في الحقبة الممتدة بين هذين التاريخين: اللغة والكتابة والديانة والمؤسسات ثم وحدة البلاد السياسية في نهاية المطاف، ومن هنا نصل إلى أهمية هذه الحقبة ومدى الفائدة المرجوة إذا عرفناها معرفة جيدة. وللأسف، وبسبب قدمها بالذات، فإنها أكثر عصور التاريخ المصري غموضاً. ومع ذلك، فقد أمكن لبعض الوقائع أن تلقى بصيصاً من الضوء على عصور التكوين هذه. وتدين بهذه الوقائع إلى فئتين من المصادر، إحداهما أركيولوجية (أثرية) والأخرى إبيجرافية (خاصة بالنقوش)

بادئ ذي بدء، فلنتناول المصادر الأولى بالفحص والتمحيص، إذ أنها تتيح دراسة الجانب المادي لحضارة وادي النيل حتى فجر عصر الأسرات. ولأن أرض مصر، في الأماكن الواقعة بعيداً عن الفيضان، هي أرض جافة جداً، فإنها تبقى على ما دُفن في باطنها، في حالة جيدة من الحفظ. ومع أعمال التنقيب المنهجية

التي أجريت في كل الأماكن تقريباً، وفي مقدمتها الصعيد، تم التعرف على أنواع البشر من أسلاف أبناء مصر في العصور اللاحقة - عصور التاريخ المكتوب.

٢ - العصر الحجري القديم

ساد الاعتقاد لفترة طويلة أن مصر لم تعرف «العصور الحجرية» التي تم الكشف عنها في أوروبا. وثبت خطأ هذا الاعتقاد. إذ لم تعرف مصر العصر الحجري الحديث فحسب، بل عرفت أيضاً العصر الحجري القديم الذي ستعرض له في عجالة سريعة، إذ يستحيل في الوضع الراهن لمعارفنا أن نتحقق من وجود رابطة ما بين سكان وادي النيل في العصر الحجري القديم والعصر اللاحق، وعلى كل حال كانت ظروف الحياة شديدة الاختلاف، ولم يكن المناخ واحداً، فكان أشد رطوبة، وأقرب ما يكون إلى مناخ الأقاليم الاستوائية في الوقت الراهن. كان النيل يغطي آنذاك أرض الوادي بأكملها، في حين لا يحتل الآن سوى نصف مساحته، ومن ثم أقام الإنسان أماكن سكناه فوق الأرض التي أصبحت صحراء فيما بعد. لقد أخذ المناخ يتدهور تدريجياً خلال نهايات العصر الحجري القديم حتى استقر مع حلول العصر الحجري الحديث عند نظام مناخي أقرب ما يكون إلى مناخ العصر الحديث.

لقد عرفت مصر جميع أطوار العصر الحجري القديم الأوروبي، فتوجد سحنة* ما قبل شيليه وأخرى شيلية وثالثة أشولية. وسحنة للتوازية - موسستيرية وسحنة مدستيرية وأخرى عاطرية ثم سحنة سبيلية. وأخيراً فإن الأورنياسية والسواتيرية والمجدلينية، تقابلها الحضارة القفصية والحضارة المعروفة اصطلاحاً بحضارة حلوان.

وهكذا يمكن القول أن وادي النيل كان أهلاً بالسكان في مختلف العصور، وافترضت بعض الدراسات الحديثة أنها قدمت القرائن على أن «المصريين الأوائل» قد تفوقوا على بقية عالم البحر المتوسط فزرعوا الشعير والحنطة في مصر العليا عند نهاية العصر الحجري القديم (١٣٠٠٠ قبل الميلاد)، أما الآن فقد عدل الجميع عن هذه الفرضية، ولكن يبدو من المؤكد أن المصريين كانوا يستهلكون الشعير في غربى الوادى خلال الألف السابع قبل الميلاد، إن لم يكونوا قد زرعه بالفعل.

٣ - العصر الحجري الحديث

برهنت أعمال التنقيب في السنوات الأخيرة عن وجود عصر حجري حديث في مصر، فعرف الإنسان فن الحجر المصقول

* سحنة Factos : مجموعة الشوائب الصخرية والمعنية أو العفوية التي يتميز بها صخران أحدهما من آخر، تكونا في زمن جيولوجى واحد أو أزمنة مختلفة تبعاً لطروف التكوين وبيئة الترسيب.

(معجم الجيولوجيا، مجمع اللغة العربية ص ١٥٩)

والخرف، إلى جانب زراعة الحبوب وتدجين الحيوانات قبل استخدام النحاس بزمان طويل.

ويحلول العصر الحجري الحديث أخذت أحوال الوادى تتغير من جميع الوجوه. فأخذ المناخ يقترب أكثر فأكثر من المناخ الحالى، وتقلص النيل وانحسر من مجمل أرض الوادى، وأخيراً استوطن البشر أرض مصر نهائياً وسكنوها. وساد الجفاف المناطق المتاخمة وتصحرت، مما دفع إلى تمركز السكان فوق شريط ضيق من الأرض التى خصبتها مياه النيل. ويمكن النظر إلى اقوام العصر الحجري الحديث على أنهم بحق الأجداد المباشرين للمصريين الذين عاشوا فى عصر الأسرات. ولم ينحدر هؤلاء بالتأكيد من جنس واحد، بل كانوا منذ ذلك الوقت محصلة مزيج أنماط بشرية من البحر المتوسط (الكوشيين الشاميين) وأخرى زنجية، وهذا الخليط ناتج فى حد ذاته من أجناس العصر الحجري القديم الأعلى. وبالنظر إلى حقيقة أن سكان العصر الحجري الحديث كانوا قد استقروا منذ هذه الأزمنة فى أرض الوادى وصاروا مصريين حقاً، فإنهم يصبحون خارج نطاق بحثنا واستقصائنا. وفى واقع الأمر، فإن الأرض التى كانوا يقيمون عليها آنذاك تنغمرها فى الوقت الراهن طبقة من غرين النيل تراكمت على امتداد آلاف السنين. إن ارتفاع منسوب المياه نتيجة هذه التراكمات جعل من المستحيل تقريباً القيام بأعمال الحفر

والتنقيب عند مستوى العصر الحجري الحديث، وقد غاص هذا المستوى ليستقر عند قاعدة الرُبى التي تنهض فوقها المدن المصرية التي يرجع تأسيسها أحيانا إلى هذا العصر، ولكن لحسن الحظ أبقى الزمن على بعض الاستثناءات، إذ امتدنا بعض المواقع بما نعرفه عن حضارات العصر الحجري الحديث فى مصر، وتتمركز هذه المواقع عند حواف الصحراء، ومن دلائل وجودها الجبانات ومخلفات الطهى على حدٍ سواء. وتشكل هذه المخلفات أكوماً ضخمة، تعود علينا دراستها بمعظم الفائدة، ويمكن أن نعثر فيها على عظام حيوانات تساعدنا على تصور أنواع الحيوانات التي عاشت فى هذا العصر، وأيضا عظام الماشية وروثها، وهى دليل توصل الإنسان إلى تربية الماشية، كما عثر أخيرا على وجه الخصوص على حبوب الشعير والحنطة، وهو مايدل على نجاح الإنسان منذ ذلك الوقت المبكر فى السيطرة على أرض وادى النيل وفلاحتها، إذ أن هبوط المزارعين إلى أرض الوادى كان فى رأينا إيذانا ببداية حضارة مصر القديمة. وسوف نوضح فيما بعد أن الدور التاريخى الذى اضطلع به الملوك هو توحيد الأقاليم فى بداية الأمر، فى ظل سلطة اتحاديين متعاضدين، يضم الأول الشمال ومصر الوسطى ويضم الثانى جنوبى الوادى، ثم تولوا فى وقت لاحق دمج مملكتى الجنوب والشمال فى مملكة واحدة. والإقليم هو نواة الأساس فى

الاتحادات الأولى، وقد نشأ من التفاف البقاع الزراعية حول
عاصمة إقليمية صغيرة، وكان للفلاح الفضل الأول في تأسيس
النواة التي شكلت مصر. ومن المفيد أن نلاحظ أن هذه النواة هي
الركيزة التي نهض فوقها البنيان كله، وكانت قد بدأت تتشكل منذ
العصر الحجري الحديث أي في حوالي الألف الخامس قبل
الميلاد. وإذا تذكر هذا التاريخ، إنما نسعى إلى عرض أفكارنا مع
شيء من الوضوح. فالتواريخ الوحيدة المؤكدة هي تلك التي يوفرها
«الكربون ١٤ المعايير» لحضارات الفيوم: 5000 ± 250 و 5000
 ± 180 ق.م والعمرى: 4000 ± 230 ق.م. كانت أدوات هؤلاء
المصريين الأوائل مصنوعة من الحجر فقط. ومنذ هذا الوقت المبكر
تتميز هذه الأدوات الطراني. بجمال القطع والصقل، وهي السمة
التي ميزت على الدوام صناعة الحجر في مصر. ولا يمكن تفسير
امتلاك الحرفيين المصريين ناصية فنهم منذ مطلع التاريخ المدون
إلا نتيجة التقاليد المتواترة المنحدرة من قاطعي حجر الطران
الأوائل، فكانوا مكملين لهم، وربما كان من الأصوب القول أنهم من
نسلهم، إلى درجة أنهم استمروا يبدعون نفس الأشكال. أقام
سكان الوادي في أكواخ على شكل تجمعات ومارسوا تربية
الحيوانات المنزلية، نذكر منها الثيران والخراف والماعز. كما تم
استئناس الكلب الذي كان يعاون على ما يظن في حراسة القطعان
وفي القنص الذي كان يوفر إلى جانب الصيد النهري إضافة

لايستهان بها لغذاء الجماعات البشرية. كما تمرسوا على فلاحه الأرض فعمروا زراعة القمح والشعير، وتم العثور على أدواتهم الزراعية كالمعاول الحجرية والمناجل النثرانية وحفظوا الحبوب في مطامير من صلصال، وعرف أبناء العصر الحجري الحديث كيف يحولون الحبوب إلى دقيق، فقد عثر على الأرحاء المسطحة التي استخدموها في طحنه. ومما هو جدير بالملاحظة أن طراز هذه المناجل والأرحاء مماثل للطراز الذي استخدم فيما بعد في العصور التاريخية. وأخيرا فقد عرف الناس منذ هذا الوقت المبكر دباغة الجلود ونسج الحصير والنسيج والحياكة وصناعة السلال. وألم الإنسان بصناعة الفخار، وإن كانت في الواقع على قدر كبير من الخشونة. كما نجح الإنسان في فلق العظام وتدبيبها وصنع منها الخطاطيف والأساور والإبر، وأخيرا فقد تقدم للموتى منذ ذلك الوقت، ما يشبه الشعائر، فدفنوا على مقربة من القرى في حفر بيضاوية، ووسدوا على جنبهم، مع ثني الركبتين أسفل الذقن، في وضع يعرف بوضع الجنين، وباختصار، فقد مهدت حضارة العصر الحجري الحديث الطريق أمام الحضارة المصرية بمعنى الكلمة، بأن زودتها بثنتي عناصرها المادية. فبفضلها برز الإطار الطبيعي الإنساني لوادي النيل بإقامة المواقع الدائمة الأولى لاستصلاح الأرض واستزراعها.

في مصر مجموعتان حضاريتان من العصر الحجري الحديث. تقع الأولى في الشمال عند الطرف الجنوبي للدلتا، قرب الفيوم

وفى مصر الوسطى، (وأهم هذه المناطق هى مرمدة بنى سلامة والفيوم (مدرج ١٠م) والفيوم ب (المدرجان ٤م و - ٢م) والعمري). وتقع المجموعة الأخرى فى الجنوب فى مصر العليا، وأهم مناطقها فى ديراغاسا، ومن الملاحظ أن مصر قد عرفت منذ ذلك الزمن السحيق مركزين حضاريين متميزين أحدهما فى الجنوب والآخر فى الشمال، الأمر الذى يفسر الأسباب التى دفعت المصريين إلى التمسك واقترة طويلة بتقسيم البلاد إلى جزئين وإن كانا لا يشكلان منطقتين متميزتين جغرافياً. فمناطق الدلتا الساحلية التى تتميز بمناخ البحر المتوسط لم تكن فى هذه الأزمنة القديمة أهلة بالسكان على مايعتقد، ومن ثم بات التمييز بين الشمال والجنوب على قدر كبير من الهشاشة. ومن ثم يرجع هذا التمييز على مايفترض إلى أصول إثنية (عرقية) أو تاريخية بكل بساطة.

٤ - العصر الإنيوليتى أو الكلكوليتى

فى أوروبا، يستطيع المرء أن يميز بوضوح تام بين العصر الحجري الحديث، حيث يعتمد الإنسان على أدوات من حجر فقط، فيقطعة ويصقله، وبين العصر الإنيوليتى (أو الحجري النحاسى) الذى يتميز بظهور المعادن الذهب أولاً ثم النحاس فالبرونز. أما فى الشرق، وفى مصر على وجه الخصوص، فلا يبدو هذا التمييز على هذا النحو من الوضوح فى معظم الأحوال، إذ تفتقر العديد

من المناطق الإنيوليتية إلى وجود المعادن. وهكذا لا ينبغي تصور حدوث ثورة مباغته تفصل بين العصرين، وغزاة يعيشون في أرض الوادى فساداً، يأتون على الأخضر واليابس، مستغلين تفوق اسلحتهم نظراً لأنها صنعت من المعادن، لينزلوا بأهل البلاد الأصليين الهزيمة ويتسديوا عليهم. وفي الحقيقة فإن الانتقال من عصر إلى عصر كان غير محسوس، ولو كانت المعادن قد جلبت إلى مصر من الخارج، وهو احتمال غير مؤكد على كل حال، فإنه لا يوجد ما يدفعنا إلى الافتراض أنها قد جاءت في ركاب غزوة خارجية. ومع ذلك لم يغير ظهور النحاس شيئاً من أساليب قطع الظران، فهو الأداة الأصلية، في الماضى كما في المستقبل. لقد حدث ما حدث وكان اكتشاف المعادن قد انتشر سلمياً؛ فأكملت الحضارة الإنيوليتية ما بدأتها حضارة العصر الحجري الحديث، ولكن في حين أمكن مقارنة العصر الحجري الحديث في مصر بمثيله على صعيد العالم، فإن مصر عندما انتقلت إلى العصر الإنيوليتي اكتسبت أصالتها الخاصة وأخذ التباين بينها وبين الحضارات المحيطة بها يتزايد. وعندما بلغ العصر الإنيوليتي أقصى درجات تطوره تداخل واختلط مع الحضارة «التاريخية» بمعنى الكلمة، وهي الحضارة التي أفضى إليها وانتهى عندها.

يقسم علماء المصريات العصر الإنيوليتي إلى عدد من التقسيمات تختلف باختلاف العلماء. فتضم هذه التقسيمات:

البيدارى والعمري والجزرة والمعادي تارة، أو ما قبل الأسرات القديم فالأوسط فالحديث، تارة أخرى، أو حضارة الإنيولوتى الأولى فالثانية تارة ثالثة، يعقبها أحياناً الزمن السابق على العصور التاريخية Protohistoire. لقد تأكد تتابع البيدارى فالعمري فالجزرة بفضل حفائر الهامية قرب البدارى، فالعصر الإنيولوتى هو فى حقيقة الأمر مكمل للعصر الحجري الحديث وله على غرار مركزان حضاريان، أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب، ولكن ما يميز العصر الإنيولوتى هو اندماج عنصرى الشمال والجنوب بعد مضى فترة من الزمن، وعلى المدى الطويل انبعثت الحضارة الفرعونية من هذا الاندماج. ومن ثم سوف ندرس العصر الإنيولوتى قبل الاندماج وبعده.

يقتصر مانعرفه عن العصر الإنيولوتى فى الفترة السابقة على الاندماج على مواقع الصعيد. وقد تم الكشف عن أقدمها فى البدارى.

اكواخ المواقع بيضاوية الشكل ومشيدة بمواد خفيفة، ويتكون الأثاث من الحصر ووسائد من جلد وأسرة من خشب. أما جبانة البيدارى فتبعد قليلاً عن القرية شأنها شأن جبانة العصر الحجري الحديث. والدفنات على شكل حفر بيضاوية مثل الأكواخ، يوسد فيها الموتى فى وضع الجنين وتحيط بهم أوان، ربما كانت تحتوى القرابين. الجديد فى هذه الدفنات هو ظهور تماثيل صغيرة

لنساء عاريات مصنوعة من العاج أو الصلصال، والأهم هو تفضيحية جدران الحفرة بتعريشة من البوص المجدول لعزل الجثة عن ركام التربة المحيطة، وتظل هيمنة استخدام الطران هي السمة البارزة لصناعة البدارى مع اقتصار استخدام النحاس على القطع الصغيرة، ثم تشكيلها بأسلوب الطرق. واعتمدوا في نسيجهم على الكتان وإن ظلوا يستخدمون الجلود، وأجادوا أشغال الخشب وتقدمت صناعة الخزف تقدماً ملحوظاً بالمقارنة بمثيلتها في العصر الحجري الحديث، إن أشكالها أقل في عددها من أشكال العصر الحجري الحديث في الشمال ولكن تفوقها جمالاً، إنه العصر الذهبي للخزف في مصر، وظهرت تقنية جديدة مع مطلع العصر الإنيوليتي: الطلاء المزجج الأزرق المائل للاخضرار. وبقيت استعمالاته محدودة، ولكن ظل مستخدماً طوال العصر الإنيوليتي، وأصبح السمة المميزة للفن المصري، وجدير بالملاحظة أن البدارى ليس بها أوان من الحجر الصلب في حين أنها ظهرت في حضارة العصر الإنيوليتي بالوجه البحري، وفي المقابل وجدت صلايات الشست، وسوف نلاحظ تطورها حتى العصر التاريخي. وأخيراً تم الكشف في البدارى عن دفنات لحيوانات تضم ابن أوى وثيران وكباش وغزلان وكانت مدثرة في حُصُر أو قماش، وهنا يثور تساؤل حول وجود شعائر خاصة بالحيوانات المقدسة منذ هذا الزمن المبكر، وربما كانت هذه الشعائر أساس الديانة المصرية في العصر التاريخي.

عاشت الحضارة الإنيوليتية كما درسناها في البدارى، مع فروق بسيطة، خلال المرحلة التي تعرف اصطلاحاً بعصر ما قبل الأسرات القديم. ولكن قرب نهاية الألف الخامس قبل الميلاد حلت سلسلة من التغييرات على مركز حضارة الجنوب الذى فرغنا لتونا من دراسته، أصبحت الأكواخ مستطيلة وشهدت المقابر تطوراً مماثلاً وهو ما يبرهن على انها قد صممت كمساكن، وسوف يبقى هذا المفهوم من السمات البارزة للحضارة المصرية. ونمت أشغال النحاس بعد أن كان استخدامه قليلاً، وظهرت الأواني الحجرية. وبعد أن كان الخزف غير مزخرف بدأت الزخارف فى الظهور، فتارة تقلد الأواني الصخرية، وتارة أخرى تغطى سطوحها بزخارف طبيعية. وظهرت مجمل هذه التغييرات كنتيجة لدمج مراكز الحضارة فى الجنوب وفى الشمال، وبالفعل فإن جميع العناصر الجديدة التى ظهرت على هذا النحو فى صعيد الوادى قد وجدت من قبل وبشكل من الأشكال فى مراكز حضارة العصر الحجري الحديث فى الشمال ولاسيما فى مرمدة بنى سلامة والفيوم، ومن المحتمل أن نضع يدنا على جميع عناصر التجديد فى حالة جنينية لو توصلنا إلى معرفة موقع معاصر للبدارى، فالمقاطع الكثرية الشكل الموجودة فى مرمدة بنى سلامة فى العصر الحديث، تظهر فى الجنوب فى الألف الخامس، لتحل محل مقععة على شكل قرص، وبالمثل فإن الأواني الصخرية التى لم تعرفها

البدارى قد عرفتها حضارات العصر الحجري الحديث في الشمال. ومن ثمّ كان للعلماء أسبابهم عندما اتفقوا على أن التغييرات التي لاحظنا وجودها في مركز الجنوب الحضارى إنما ترجع أصولها في حقيقة الأمر إلى الشمال. ولكن نودّ أن نؤكد على نقطة واحدة: إذا كانت حضارتنا الشمال والجنوب مختلفتين قبل اندماجهما، فلا يعنى ذلك أنهما كانتا غريبتين الواحدة عن الأخرى، ينحصر الجانب الأكبر من مركز الشمال في حواف الدلتا الجنوبية وفي الفيوم، وهو إفريقي - شأنه شأن مركز الجنوب. لقد تفوق بميزة جغرافية وحيدة، هي إمكانية الإتجار مع الغرب عبر «برزخ» واحدة سيوة، ومع الشرق عبر سيناء، وربما جاء النحاس من ناحية الشرق.

وأخذ البعض بفكرة الغزو لتفسير اندماج الجنوب والشمال، اعتقاداً منهم أنهم كشفوا عن عناصر بشرية أجنبية في مقابر الوجهة القبلى اللاحقة على الاندماج، ولا يوجد ما يؤكد أن هذه العناصر البشرية «ذات الرأس القصيرة» ليست أيضاً من عناصر البحر المتوسط، وإضافة إلى ذلك، فإذا اعتبرنا هذه العناصر عناصر أجنبية، فإن أعدادها ليست بالضخامة التي تدفع المرء إلى اعتبار أن ما حدث هو غزو أو احتلال، وحتى لو كشف علم الآثار عن تأثير للشمال على الجنوب كما يجزم البعض - وإن ظلّ الأمر في حاجة إلى دليل - فلا يوجد على كل حال ما يدفعنا إلى

أن تؤكد أن ما حدث كان نتيجة تدخل أجنبي، ولا يعنى ذلك بالطبع عدم وجود اتصالات شرقاً وغرباً مع عناصر أسيوية أو ليبية. وفى عصر ما قبل الأسرات الحديث اكتمل الاندماج بين المراكز الحضارية فى الشمال والجنوب، وسجلت هذه الحضارة تقدماً ملحوظاً على الحضارة التى كانت قائمة فى الوجه القبلى عند بداية العصر الإنيوليتى.

ظهر الطوب اللبن فى أعمال التشييد، وكانت مطامير الحبوب من الصلصال المحروق فكانت بالتالى عازلة إلى حد كبير، وفى الجبابات، لم تتخذ الحفر أشكالاً مستطيلة، على غرار المساكن وحسب، بل إنها تشهد إرماصات عمارة حقيقية. فحجرة الدفنة مكونة من بناء من طين، ويعلوها سقف وأعدت حجرات جانبية كمخازن للمؤن الجنائزية. وفى البداية كان يوضع المتوفى فى صندوق من خيزران ثم فى الصلصال المحروق ليدفن فى نهاية المطاف فى تابوت حقيقى من خشب، بل يبدو أن الجبانات قد أقيمت فى البر الغربى من النيل على وجه الخصوص، كما تتجه رأس المتوفى إلى الشمال ليدير وجهه صوب الشرق، وباختصار فإننا نشهد هنا ظهور الصياغة الأولى للديانة الجنائزية المصرية ولو على الصعيد المادى، وتحسنت الصناعة وبلغ صقل الطران الذروة، كما نشهد أخيراً وبالتحديد تصوير الإنسان كما يظهر فى زخارف الأوانى الفخارية ذات الخلفية المائلة إلى الصفار، وفى

التمائيل الصغيرة أو المصنوعة من العاج أو الصلصال، وعلى السطوح المنقوشة لمقابض السكاكين، بل وفي تصوير جدارى حقيقى. كما حلّ الدور على فن التماثيل ليظهر إلى الوجود (تمثال رجل وآخر لأسد). إنه العصر الذهبى للأوانى المصنوعة من الحجر الصلب، فكانت تقطع وتصقل ببراعة ومهارة فائقتين. ويلقى تطور الفن بصيص نور على الحياة الاجتماعية لأبناء العصر الإنيوليتى. وكثيراً ما تظهر على القطع الأثرية المصورة، وبصفة خاصة على الصلايات المصنوعة من الشست، أشكال مبان أو أشخاص يرفعون ما يشبه السوارى التى يعلوها حيوان أو شىء، وسوف نلتقى فى العصور التاريخية بهذه الألوية على هيئة شارات الأقاليم، وتأسيساً على ظهورها، يحق لنا على ما يبدو أن نستنتج أن مصر، قبل حلول نهاية العصر الإنيولوتى، كانت قد عرفت تنظيماً اجتماعياً، وأخيراً فإن انتشار تصوير الصقر ورأس البقرة على سطوح الصلايات يدهض دليلاً على صياغة الديانة المصرية منذ ذلك الزمن وارتباط عبادة حتحور برأس البقرة وحورس بالصقر، ومن ثم امتلك سكان وادى النيل مختلف عناصر الحضارة التى ستبدأ الآن فى الازدهار بإيقاع متسارعاً.

اعتمدنا حتى الآن فى عرضنا لحضارة العصر الإنيوليتى على المصادر الأركيولوجية وحدها التى سمحت لنا بإعادة صياغة كبرى انتصارات حضارة وادى النيل لعصر ما قبل التاريخ فى خطوطها العريضة: الزراعة وتربية الماشية والنسيج وقطع الأحجار

فى العصر الحجرى الحديث، والمعادن وتقنيات البناء والتشييد، ثم
القرن وتطور الدين فى العصر الإنيوليتى. لقد أكدنا منذ البداية فى
مؤلفنا هذا على قدم الحضارة المصرية واستمراريتها، وبالنظر
إلى أنها لم تتوقف أبداً توقفاً قاطعاً، فقد احتفظت على الدوام
بذكرى أقدم العصور، فظهرت المصنفات فى العصور التاريخية
لتضم التقاليد المتواترة حول ما حدث فى مصر قبل ظهور التاريخ
المدون، بل وقبل توحيد البلاد. هذه النصوص التى تضمها
ما يعرف اصطلاحاً بـ «متون الأهرام»، لم تدون فى أهرام الجيزة
الشامخة، بل على السطوح الداخلية للأهرام الأقل شأنًا، التى
شادها ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة.

وتشير هذه الوثائق على ما يبدو إلى أحداث وقعت فى بداية
العصر الإنيوليتى. وللأسف ترتبط هذه الوثائق بأحداث وقعت فى
مركز الشمال الحضرى الذى لم يصلنا عنه وثيقة أركيولوجية
واحدة، ومن ثم يستحيل البرهنة على صحة الوقائع التى
نستخلصها من متون الأهرام بالاعتماد على المصادر
الاركيولوجية. وتنبئنا هذه النصوص، إذا ما أخذت على علاتها،
بأنه قبل اندماج الشمال والجنوب، كان الوجه القبلى يمثل مملكة
الإله «ست»، فى حين قام تجمع فى الوجه البحرى يضم أقاليم
غرب الدلتا، وآخر معارض له يضم الأقاليم الشرقية من الدلتا.
وعلى الأرجح فإن أوزيريس ملك الشمال قد تولى توحيد التجمعين

الشرقي والغربي، ثم شن خليفته حورس هجوماً على مملكة ست الجنوبية فاستولى عليها. وهكذا قام على مايبندو نظام ملكي موحد حكم مجمل تراب مصر، لكنه لم يدم طويلاً على مايبندن، وانقسم على جناح السرعة: فملك يحكم الجنوب من مدينة الكاب، وآخر يحكم الوجه البحري من مدينة بوتو - تل الفراعين حايلا. ويرى عالم المصريات الألماني «كورت زيت» Sethe (١٨٦٩ - ١٩٣٤)، أن مصر قد أخذت بالتقويم الشمسي خلال مرحلة الوحدة الأولى وهو مايقابل حوالي عام ٤٢٠٠ ق.م، ويرجع أن عاصمة البلاد كانت - قرب القاهرة - عند هليوبوليس، وإذا صحّت هذه الفرضية - إذ أنها مجرد فرضية ليس إلا - لا يمكن إيجاز تأريخ حضارة ما قبل التاريخ في مصر على النحو التالي: من عام ٥٠٠٠ إلى عام ٣٨٠٠ تقريباً: العصر الحجري الحديث وبداية الإتيوليتي. وكانت مصر منقسمة، على مايبندو، إلى مركزين حضاريين، الأول في الشمال والثاني في الجنوب. حوالي عام ٣٧٠٠: ظهور المعادن وقيام الشمال بتوحيد نفسه ثم بغزو الجنوب على مايبندن، في بداية الألف الرابع، وحوالي عام ٣٦٠٠: قام نظام مصر، وكان مركزه، على مايبندو، في هليوبوليس. ولكن سرعان ماخبا نجم هذا النظام الملكي لينقسم إلى مملكة في الجنوب وعاصمتها الكاب وكانت منافسة لمملكة في الشمال وعاصمتها بوتو، على مايبندن.

إن إعادة صياغة الأحداث على هذا النحو من - ٥٠٠٠ إلى - ٣٠٠٠، لأمر مفرحاً، ولكن يشدد الكثيرون على ضعف البراهين

المعضدة لها، ويميل الكثيرون بالأحرى إلى اعتبار أن وحدة البلاد كانت من صنع الجنوب وأن مملكة هليوبوايس فى عصر ما قبل التاريخ ليست سوى رؤية ذهنية.

٥ - نهاية عصر ما قبل الأسرات والعصر الثينى (٢٧٨٠ - ٢٠٠٠)

لم نعثر يقيناً عن آثار لوجود «مينا» الذائع الصيت، ومؤسس النظام الملكى القرموتى، بل ومن الراجح أن ينسحب هذا الإسم على عدد من الملوك، وفى المقابل فيبين أيدينا وثائق عن الفترة السابقة مباشرة على توحيد البلاد، فقد عثر فى هيراكونبوايس - الكوم الأحمر حالياً (راجع ملاحق الكتاب: الخريطة رقم ١) التى كانت على ما يبدو عاصمة ملوك الجنوب لهذه الفترة، على آثار تمثل ملكا يدعى الملك العقرب، وهو يهيم بمحاربة المصريين القاطنين فى الشمال، ويرجح أن العقرب قد بسط سلطانه حتى شمالى منف، كما يبدو أن خليفته نعرمر كان موحد البلاد الحقيقى. ويظهر هذا الملك على سطح سلاية وهو يحارب أيضا المصريين القاطنين فى الشمال، بيد أنه كان يرتدى، منذ الآن، شارات ملك الجنوب والشمال، ومن ثم فقد توحدت البلاد فى شخصه، ولهذا السبب يتسائل البعض عما إذا كان هذا الملك هو مينا.

أما عن الأسرتين الأولىين اللتين دامتا خمسة قرون فى الزمان، واستهلها الملك «نعرمر» فإننا لا نعرف سوى القدر القليل، بل إن

العاصمة «ثنى» ذاتها - التي كانت على ما يبدو قرب أبيدوس -
العراية المدفونة حالياً - فقد تعذر تحديد موقعها على وجه الدقة،
ولا ندري إن كانت مقابر ملوك الأسرة الأولى التي عثر عليها في
جبانة أبيدوس ليست سوى مجرد مقابر تذكارية.

تضم الأسرة الأولى ثمانية أو سبعة ملوك (حسبما اعتبرنا
«نعرمر» مؤسس الأسرة أو مجرد سابق عليها، وهؤلاء الملوك هم:
نعرمر ومها وجر وواچى (أو چت كما عرف في الماضى) و
دن (ويعرف أحياناً بإسم واديمو) وبعج إيب وسمرخت وقا،
وعلى كل حال لا تتطابق هذه الأسماء كما نعرفها من الآثار
وأسماء القوائم الملكية التي تم تصنيفها في وقت لاحق ولا مع
قائمة مانتون، ولا ينبغي أن نشغل بالنا هنا بأمر هذا التطابق،
كانت الأسرة الأولى مرحلة تنموية متسارعة، ومن المؤسف له حقاً
أننا نفتقر إلى الوثائق، وهو ما يحوّل دون تتبع هذه التنمية
ودراستها، إنه عصر تأسيس مصر كما ستبدو خلال الدولة
القديمة، وقد جنح مركز المملكة إلى الاستقرار عند الطرفة
الجنوبى للدلتا، بين الشمال والجنوب تماماً، ويبدو أن تأسيس
مدينة منف التي أصبحت عاصمة الدولة القديمة - يرجع إلى عهد
عما، كما شهدت هذه المرحلة توسعاً حضرياً يشهد على أن تنمية
البلاد قد بلغت شأواً عظيماً، ومنذ ذلك الوقت المبكر، شرعت الأمة
الوايدة تصطدم بأعدائها «التاريخيين»، نعى النوبيين في الجنوب،

قشون عليهم جو في أعقاب عسا معارك مظفرة حيث توغل في عمق أراضى النوبة. وسجل انتصاره في نقش محفور فوق قمة جبل الشيخ سليمان (على بعد ١٥ كم جنوب وادى حلفا) عند مدخل الجندل الثاني. وأخيراً فإن الدفنان النوبية المعروفة «بالمجموعة أ» - المعاصرة للأسرات المصرية الأولى - تقف شاهداً على تأثير مصرى أكيد، إن لم تكن بالفعل على تبعية كولونياية جزئية. كما أن الفراعنة الثنتين قد حققوا نجاحاً مماثلاً ، على ما يبدو، عند كبح جماح الليبيين غرباً وكذلك الآسيويين شرقاً، بعد أن اضطدم بهم «سمرخت» على ما يظن، في غمار حملته على سيناء. وأخيراً جرد، «واچى» الملك الثعبان - حملة إلى الصحراء الشرقية صوب البحر الأحمر عند مستوى مدينة إدفو. (راجع الخريطة رقم ١).

وإذ واصل ملوك مصر أولى هذه المعارك الخارجية، فقد استمروا يباشرون أعمال التهتة في الداخل، إذ لا يبدو أن أهل الشمال قد تقبلوا على الدوام وعن طيب خاطر هيمنة ملوك انحسروا أصلاً من الجنوب على ما يظن.

تضم الأسرة الثانية سبعة ملوك طبقاً لما عثر عليه من آثار تسعة أو عشرة حسب قوائم الملوك، وسينصب اهتمامنا على الملوك الذين عثر على آثارهم وهم: «حوتب سخموى» و «نپ رع» و «نى نقر» (المعروف أيضاً تحت إسم أفتريمو) و «ونج» و «سندج» و «پر إب سن» و «خع سخم» و «خع

سخموى»، ولا يتميز هؤلاء الملوك عن سببقوهم فى شىء، فاستمرت الحروب ضد النوبيين، وكذلك عمليات إخضاع الشمال. ومن ثم يمكن أن نتطلع إلى تطور مصر التاريخى فى ظل الأسرتين الأولىين كسياق واحد، ويتميز هذا التطور بتقديم الكتابة وتنظيم المؤسسة الملكية، والأمرا مرتبطان دون شك، فما كان للكتابة أن تنمو وتتقدم إلا مدفوعة بزيادة سلطات النظام الملكى، والعكس بالعكس، وبلغت الملكية قدراً من القوة يسر عليها إرسال الحملات إلى خارج مصر، فوصلت الجيوش المصرية حتى سيناء، بحثاً عن الأحجار الكريمة وتوغلت فى أعماق النوبة وفى الصحراء الشرقية، وشرع تشكيل النظام الملكى يكتمل شيئاً فشيئاً، وكم كنا نود أن نعرف هل كان النظام ملكية مطلقة منذ ذلك العصر، مثلما كان الحال فى ظل الدولة القديمة، وهل ظلت القبائل أو القرى تتمتع بقدر من الحياة المستقلة؟ لا نعرف شيئاً عن ذلك، ولكن تبرز حقيقة سادت وهيمنت كقسمة مميزة للنظام الملكى فى مصر حتى الغزو اليونانى: فعنى بذلك السمة الدينية التى طبعت هذا النظام، إن فرعون إله على الأرض، ومن ثم اكتسبت حفلات التتويج والأعياد الدينية التى لا حد لها فى ذلك العصر دلالة مزدوجة، فهى إدارية ودينية على حد سواء، فلا انفصال بين ما هو مقدس وما هو مدنى، فقد يكون الموظف كاهناً شأنه فى ذلك شأن الملك، ويبدو أن تعقد سلك الوظائف ونظمها قد أخذ ينمو ويتسع فى ذلك العصر.

وإذ تلاحظ أن الهيكل الوظيفي قد أخذ بالتدرج الهرمي فإننا لا ندري إن كان قد عرف التخصصات الدقيقة أيضاً، وتأبعت البلاد تنظيم اقتصادها، وشاهدنا الملك يشرف بنفسه مرتين على شق القنوات. إن المشرف على صيانة القنوات كان واحداً من أبرز الموظفين وأحد ألقابه «حاكم الإقليم» الذي تقع على عاتقه شئون الإدارة المحلية بأسرها، ومن ثم تمثل الأسرتان الأوليان عصر بلورة الحضارة المصرية وقد شهدت العصور التي سبقتها تراكم العناصر المادية الضرورية لهذه الحضارة: كانتشار الفلاحة في أرض مصر وصياغة الديانة واللغة والكتابة والتوصل إلى تقنيات المعادن والفخار والنسيج إلخ.. لقد حوت الأسرتان الأليان هذه الحضارة من مجرد إمكانية إلى مملكة موحدة سياسياً، عندئذ تبرز المسألة «السياسية» التي كانت غائبة عنا في عصر ما قبل التاريخ، وإذا نشعر بالأسف الشديد لافتقارنا إلى ما يوضح سياق تطور تنظيم البلاد. لقد أتاحت لنا الأركيولوجيا (علم الآثار) ودراسة الخرافات الدينية أن نتصور من جديد عملية توحيد البلاد في خطوطها العريضة وكيف انصهرت جماعتا الجنوب والشمال بعد تناحر مريو، ولكن لا الوثائق الأركيولوجية ولا الأساطير، تلقى الضوء على ولادة «الدولة» الفرعونية التي تظهر في العصر التالي مكتملة الأركان، ونتعرف مع بداية الأسرة الأولى على وجود ملك واحد، وأن مصر تنقسم إلى أقاليم، عيُنَ على رأس كل منهما

موظفون ملكيون، ولكن ما نشاهده هو النتيجة، ولا ندري كيف كان الطريق إليها. وتعتقد الآمال الضخمة على الحفائر الجارية في الوقت الراهن في سفارة وحلوان، وتضم عدداً كبيراً من مقابر الأسرات الأولى، ونخص بالذكر إعادة إستكشاف مواقع نقادة وميراكونبوليس (الكوم الأحمر حالياً) في جنوب البلاد، وربما ألت هذه الحفائر الجديدة ضوءاً جديداً على تنظيم المؤسسة الملكية، وربما دفعتنا أيضاً كما تشير بعض الدلائل، إلى الرجوع لبداية تنظيم البلاد إلى زمن أكثر إيفالاً في الماضي، في قلب الأزمنة الغابرة التي عرضنا لها لتونا بإيجاز.

الفصل الثانى

مصر الكلاسيكية

١ - الدولة القديمة

٢٧٨٠ إلى ٢٤٠٠ ق.م على وجه التقريب

عندما كان المصريون فى فترات الانحطاط يتخيلون عصرأ ذهبياً، كانت الدولة القديمة هى قبلة أفكارهم، فيسمى فنانونها وكتبتها سعياً حديثاً، إلى تقليد لغة هذا العصر وفنونه، ولا ندرى ماهى الوثائق التى كان يعتمد عليها المصريون لمعرفة أجدادهم الأولين، إلا أننا بالتاكيد أقل حظاً منهم، إذ مازالت معرفتنا بتاريخ الدولة القديمة معرفة سيئة، صحيح أن هذا العصر خلف وراءه آثاراً عديدة، وعوضاً عما نعانيه من قصور فى التاريخ السياسى والعسكرى والإدارى، فقد بلغت معرفتنا بالحضارة المادية قدراً معقولاً، وسيقتصر عرضنا هنا على الإطار التاريخى للدولة القديمة التى تعتبر نظر الكثيرين من أزهى عصور الحضارة المصرية.

كما أنه لا يوجد خط فاصل واضح بين العصر الإنيوليتى والأسرتين الأوليين، كذلك لا وجود لفاصل بينهما وبين بداية الدولة القديمة، إن «جسر» ثانى ملوك الأسرة الثالثة - التى يبدأ بها هذا العصر - هو على ما يحتمل إبن «خع سخموى»، آخر ملوك

الأسرة الثانية. بيد أن ماشهدته الحضارة عندئذ من تطوير -
ولاسيما في فنون العمارة - يحملنا مع ذلك على أن نبدأ أسرة
جديدة. والحدث الأهم الذي وقع في ظلّ حكم «چسر» هو انتقال
مركز البلاد السياسي - ولو نظرياً - من أبيدوس إلى منف، الأمر
الذي يبرر، على كل حال، تصنيف الدولة القديمة كمرحلة منفصلة،
فعرفت أحياناً لهذا السبب بالدولة المنفية أو بالعصور
المنفية. فبعد أن أمر «چسر» بأن تشيد له مقبرة في «بيت
خلاف» على مقربة من أبيدوس، أمر بأن يشيد له هرم مدرج في
سقارة على مقربة من منف، وخلال حكم «چسر» أيضاً على
مايبو - قام فرعون بتعيين وزير أول ليعاونه في تصريف الشؤون
الإدارية، بعد أن توسعت الإدارة الملكية أو ازدادت تعقيداً. إن
منصب الوزير الأول الذي شغله «إيمحوتپ» - قد جرت العادة أن
يطلق عليه في لغات الغرب إسم «وزير» vizir قياساً على ما هو
متبع في الدول الشرقية القريية العهد، ومع أنه لم يحمل فعلاً لقب
«وزير» («تشاتس»)، إلا أنه باشر اختصاصه. ونسجت في وقت
لاحق أسطورة حول شخصية «إيمحوتپ»، فارتقت إلى مصاف
الآلهة باعتباره ابن الإله پتاح في منف، وإليه يرجع الفضل في
تشيد المجموعة المعمارية الرائعة لهرم سقارة المدرج وملحقاته.
ونستنتج من العديد من الدلائل أن «چسر» قد شنّ غارات عسكرية
على النوبة ليواصل ما انجزته الأسرة الأولى في هذا المضمار.

وهكذا تهج سياسة تلك خطأ ثابتاً طوال النوبة القديمة، حيث ركز المصريون في ذلك العهد جلّ اهتمامهم على جيرانهم في الجنوب أكثر من اهتمامهم بجيرانهم في الشمال الشرقي، وحسيما ورد في نص، يرجع في الحقيقة إلى العصر المتأخر، فإن «جسر»، كان أول من توغل في النوبة، قيما وراء الجندل الأول، ولكن كما رأينا فإن الملك «جور» كان قد وصل من قبل إلى الجندل الثاني، ولا ينبغي على ما يفترض أن نفهم النص على أنه إشارة إلى التغلغل في أراضي النوبة، بل إلى الاستيلاء عليها وضمها إلى مصر، وإذا كانت سيناء لا غنى عنها للإقتصاد الصناعي والديني في مصر بما تضمه من محاجر الأحجار الكريمة وربما النحاس، فقد ظلت هدفاً للإغارات وتشهد لوحة محفورة في الجبل على وصول قوات «جسر» إليها.

إن نهاية الأسرة الثالثة معروفة معرفة سيئة جداً إذ لا نكاد نعرف شيئاً عن ملوك الأسرة الآخرين: «سانخت - نيكاء» و«خع با» و «نمركا» وأخيراً «سوه» أو «سونس» (أي الضراب)، صاحب الهرم القائم في ميوم. وعلمنا من الاكتشاف الموفق في سقارة عام ١٩٥٢ لهرم لم يكتمل أن اسم خليفة «جسر» كان يدعى «سخم خت»، بعد أن ظلت معرفتنا به قاصرة على نقش في سيناء.

الاسرة الرابعة:

كان من المفترض أن تكون الأسرة الرابعة التي تبدأ بحكم

«سنفرو» خليفة «حوني»، من أفضل ما تعرفه من أسرات مصر الفرعونية، بالنظر إلى أنها أسرة بناء الأهرام الكبرى، ولكن الحقيقة خلاف ذلك، فأفضل ما وصلنا من معلومات يخص أيضاً «سنفرو» مؤسس الأسرة، وإن كان من الأصوب القول أن معلوماتنا عنه هي الأقل سوماً، وبالفعل تخبرنا أجزاء الحوايات المدونة على الحجر الذي يعرف اصطلاحاً بحجر بالرمو، بأن عهده قد شهد حملة إلى النوبة وأخرى إلى ليبيا وأن جنوده قد وصلوا أيضاً إلى سيناء كما يشهد أحد المخريشات على ذلك، وأخيراً كان «سنفرو» بناءً عظيماً كما تشير إليه ماشيد أو عدك من أهرام، بناءً على طلبه، فأحدها في ميوم والأخران في دهشور. ولتنفيذ مشاريع الإنشائية فقد أقام على ما يبدو علاقات مع سوريا التي كانت تمدّه بالأخشاب.

وإن يبخل المرء بشيء مقابل أن يحصل على معلومات عن خلفاء سنفرو الثلاثة: «خوفو» و«خعفر» و«منكاورع» إن ما تعرفه عن الملوك الثلاثة الذين شادوا الأهرام الكبرى - أهم عمائر مصر - هو في الحقيقة أقل بكثير مما نعرفه عن سلفهم. لقد رأى الإغريق والكثير من المحدثين الذي نسجوا على متوالهم أن هؤلاء الفراعنة كانوا طغاة سحقوا الشعب المصري تحت وطأة أعمال السخرة، لقد برهن جورج بوزنر G. Posener أن هذا التقليد المتواتر إنما يرجع إلى الأدب المعادي للنظام الملكي الذي شاع في

مصر خلال عصر الانتقال الأول، ولكن الذى حدث فى واقع الأمر ان إقامة الشعائر الجنائزية التى تخص هؤلاء الملوك لم تتوقف أبداً واستمر حتى الغزو المقدونى، الأمر الذى لا يتفق مع ما شاع بشأنهم كملوك مكروهين، وباستثناء الحملات إلى سينا فى عهد خوفو، فإننا لا نعلم شيئاً عن النشاط العسكرى للوك هذه الأسرة، وباختصار، فإن الأمر أشبه مايكون كما لو كان كل ماتعرفه عن لويس الرابع عشر ملك فرنسا - قد وصلنا من خلال قصر فرساي Versailles . وما زالت آثار هؤلاء الملوك تقف فى مكانها وفى كمالها، تشهد دون جدال على حضارة تفوقت تقنيا وإدارياً على حدّ سواء، ولكن كل ماتعرفه يقف عند هذا الحدّ، بل إن ترتيب فرعونية هذه الأسرة غير مؤكد، فممازنا نجهل على وجه التحديد ترتيب الملك «خعفرع»، كان ثانى أبناء الملك «خوفو» واغتصب الحكم، على ما يبدو، بعد أن أمر بقتل أخيه، وبعد أن اغتيل هو شخصياً حل «خعفرع» مكانه، على ما يظن، أما أواخر ملوك الأسرة وهم «بيكريس» و «سبركيس» و «ثمفثيس»، طبقاً لراوية مانتون، وفيما عدا «سبركيس» (أو «شيسسكاف» كما ورد على الآثار) فإننا لا نعلم إن كانوا قد وجدوا بالفعل.

الأسرة الخامسة : (٢٥٦٣ - ٢٤٢٣)

تحدثنا حكاية مصرية من الدولة الوسطى عن تفاصيل منشأ الأسرة الخامسة، فقد حدث على ما يعتقد أن زوجة أحد كهنة الإله

رع حملت بالملوك الثلاثة الأوائل لهذه الأسرة وأن الإله رع ذاته كان والدهم، ومن المؤكد أن عبادة إله الشمس رع قد بلغت في هذا الزمن شتواً عظيماً، ربما لأن هليوبوليس كانت ببساطة الموطن الأصلي لهذه الأسرة – حيث عبادة الإله رع، أو ربما أيضاً بسبب الدور الذي لعبه كهنة هذه المدينة عند تولي هذه الأسرة مقاليد الحكم؛ ومهما كان الأمر، فمئذ ذلك العصر والفراعنة يحملون بصفة دائمة لقب «ابن رع»، وبداية فإن سطوة الدين على الحياة في ذلك العصر، تجد ترجمتها في أسماء الملوك، فاسم رع يظهر فيها في أغلب الأحيان، وهؤلاء الملوك هم: «أوسركاف» و«ساحورع» و«نفريرايركارع» و«شيسكارع» و «نفر إن رع» و «نسى أوسر رع» و «منكاوهور» و«چنكارع – إسيسى» و «أوناس»، كما حدثت الديانة الشمسية عمارة المعابد التي شيّدت في ذلك الحين، ويشير حجر بالرمو إلى تشييد العديد من المعابد، وأخيراً، يرجع تصنيف متون الأهرام إلى هذا العصر، (بل ويتسائل البعض إن كان تأليفها لا يعود إلى هذه الفترة)

وعلى سعيد التاريخ الخارجي، يبدو أن الأسرة الخامسة قد ولت وجهها شطر آسيا، إما لوقوعها ضحية هجوم أو لرغبتها في التوسع في ذلك الاتجاه، وخرج «ساحورع» و«نسى أوسر رع» و«منكاوهور» و«چنكارع» على رأس الحملات العسكرية إلى سينا وأيضاً إلى آسيا وإيبيا.

الأسرة السادسة (٢٤٢٣ - ٢٢٦٣ تقريباً) :-

جاء الانتقال من الأسرة الخامسة إلى الأسرة السادسة، ذات الأصول المنفية، نون صندام واضح، ونكاد لا نعرف شيئاً عن أول ملوكها «سحتي تاوي تيتي» وأيضاً عن خلفه «أوسركارع» الذي كان حكمة قصيراً جداً، ونصبح أوفر حظاً مع «بيبي» الأول، فنعلم أنه شيد العديد من المعابد ونعرف بعض تفاصيل حياة الملك بفضل ماوصلنا من السير الذاتية لكبار الموظفين، تزوج «بيبي» الأول على التوالي من ابنتي أحد كبار موظفي أبيدوس وزرق منهما بولدين تعاقبا على عرش مصر. لقد وصلنا العديد من الوثائق عن نشاط «بيبي» ولاسيما المراسيم الخاصة بإقامة المؤسسات الخيرية، وهذه المراسيم عظيمة الفائدة لدراسة القانون المصري في أقدم العصور، وشأنه شأن أسلافه، ظل «بيبي» يراقب النوبة في حذر وأعدّ العدة للقيام بالعديد من الحملات ضد الأسويين، وكان «أوني» على رأس هذه الحملات وخاض خمس معارك على الأقل، ضد البدو في آسيا، وهو مايشير على ما يبدو إلى أن البلاد المعادية لم تكن تخضع للاحتلال تحت أي ظرف من الظروف بل كانت الجيوش المصرية تكثف بمجرد شن غارات كبيرة عليها.

أما خليفة «بيبي» الأول المباشر فهو ابنه «مررع» الذي يعتقد أنه توفي في مقتبل العمر بالنظر إلى أن مدة حكمه لم تتجاوز

الخميس أو السبت سنوات. وواصل «مرنرع» على ما يبدو سياسة فرض تبعية النوبة لمصر، وهي السياسة التي وقع على عاتق خلفه أن يستكملها، فأرسل إلى النوبة العليا شخصاً يدعى «حرخوف» الذي توغل إلى أعماق إفريقيا.

ونتيجة وفاة «مرنرع» المبكرة، اعتلى العرش «بيبي» الثاني وهو أخوه نصف الشقيق، ولم يتجاوز السادسة من عمره، فكانت سنوات حكمه أطول ما عرفته مصر: إذ دامت أربعاً وتسعين سنة. وفي عهده واصل «حرخوف»، مابداًه في عهد «مرنرع»، فعمل على استتباب الأمن في ربوع النوبة، وخرجت الحملات التجارية إلى بيبيلوس وإلى بلاد بونت» أي على امتداد الشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر - جهة إريتريا الحالية. وأخيراً تشير أعمال التنقيب الحديثة في بلدة «بلاط» إلى أن واحات الصحراء الغربية، والواحة الداخلة على وجه الخصوص، كانت ملتقى الطرق بين مصر من ناحية، وبين النوبة وليبيا من ناحية أخرى، وهكذا لعبت دوراً بارزاً في علاقات مصر الخارجية.

وفي ظل حكم بيبي» الثاني بدأ اضمحلال الدولة القديمة، إما لأن مدة حكمه قد طالت أكثر من اللازم، أو لأن الملك، وقد تقدمت به السن، لم تتوفر له العزيمة المطلوبة للإبقاء على وحده البلاد التي كانت تتركز في واقع الأمر على شخصه وحده. ومع ذلك، وطبقاً لما رواه مانتون، تربع أيضاً على عرش مصر خلفاً لـ «بيبي» الثاني -

ملك وملكة، هما «مرنرع» الثانى و«نيتوكريس» (نيث إفرث)، دون أن نعلم شيئاً محدداً عن حكمهما. وهكذا انتهت الدولة القديمة على هذا النحو من الغموض، إلا أنها كانت عصباً عرفت فيه مصر قديماً كبيراً من الرخاء الداخلى. وهو بكل تأكيد العصر الذى بلغت فيه السلطة الفرعونية أوجها. وكان الملك آنذاك إلهاً على الأرض - بكل ما لهذه العبارة من قوة، فيخشاه الناس ولكنهم يطيعونه. وفى ظل ما فرضه من انضباط صارم عرفت مصر على ما يبدو ازدهاراً اقتصادياً لن تستعيده فيما بعد إلا بصعوبة وعلى فترات متفاوتة. ولم تصلنا المعلومات الكافية عن مدى الإشعاع الخارجى للدولة القديمة، ولكن واقع وجود معبد مصرى فى بيبلىوس فى ذلك العصر ليرهان على أن هذا الإشعاع لم يتوقف عند حد إعادة فتح النوبة، الأمر الذى ظل على كل حال المآثرة الكبرى لهذا العصر.

٢ - عصر الانتقال الأول

قد تكون المرحلة الفاصلة بين الطور الأول من تاريخ مصر الكلاسيكية وطره الثانى - مرحلة تتحرق شوقاً إلى معرفتها، إذ يبدو مؤكداً استناداً إلى المصادر التى تحت أيدينا، أنه قد ظهر إلى الوجود منذ عهد «بيبى» الثانى، ما يشبه الاختمار الاجتماعى، وسرعان ما استعصت أوضاع الثورة الاجتماعية من جراء تفتت السلطة المركزية. وهكذا ولغفرة تزيد على قرن من الزمن تقاضت

مصر القلائل الاجتماعية وفوضى الأقاليم التي زاد من حدتها، على ما يعتقد، التسلسل الخارجى. وتعرف هذه الفترة بمصر الانتقال الأول. إنها فترة يسودها الغموض، ويبدو أنها بدأت فى واقع الأمر منذ عهد «بيبى» الثانى. وتتسم باضمحلال سلطة منف المركزية والثورة الاجتماعية فى آن واحد. وإذا كان فى الإمكان أن تستشف اضمحلال السلطة المركزية من خلال الوثائق المعاصرة فالثورة ذاتها تظل غير معروفة إلا من خلال نصوص أدبية تم وضعها بعد وقوع الأحداث.

رأينا أن سبب اضمحلال السلطة الملكية يرجع فى واقع الأمر إلى أن منصب حاكم الإقليم قد أخذ يتحول إلى منصب وراثى. ويرد المعارضون بأن ضعف الملوك قد سمح بأن يُورث «حكام الأقاليم» سلطاتهم إلى أبنائهم، وربما كان ينبغى البحث عن السبب الدفين وراء اضمحلال النظام الملكى فى فقدان الملك هيئته، إن لم يكن فى ضياع الطابع المقدس لشخصه. يتحدث الناس عادة عن قيام الإقطاع فى مصر فى ذلك الزمن. ولكن ينبغى أن نبتعد عن أى تلاعب بالألفاظ، فمصر لم تعرف قط النظام الإقطاعى، بما يحمله هذا اللفظ من معنى فى تاريخ العصر الوسيط، فلم يتعد الأمر وجود حالات من اغتصاب السلطة على المستوى المحلى، وهو ما يختلف كل الاختلاف، وقد يعترف الملك بالأمر الواقع، إلى هذا الحد أو ذاك، لعجزه عن القضاء عليه، ولم

يصل الوضع أبداً إلى حد إقامة نظام شبيه بذلك الذي قام على
أنقاض الإمبراطورية الرومانية.

وربما جاءت إغارات البدو التي عجز الملك عن صدّها لتعجك
من اضمحلال السلطة الملكية فأضحى هذا الاضمحلال على
ما يبدو في أصل القلاقل الاجتماعية التي لا نعرفها إلا من خلال
بعض النصوص المثيرة جداً لاهتمامنا، فخير ما نفعل هو
الاستشهاد بها: «الفقراء صاروا يملكون الخيرات، من كان عاجزاً
عن أن يوصى بأن يصنع له نعلان، يملك الآن الكنوز.. والأثرياء
في أنين، في حين يرتدى الفقراء الفرح، ويقول أهل المدن:
«فلنمسك بالأثرياء الذين بين ظهرانينا..» القصور وصنوف
الأساطين أضربت فيها النار.. والأقاليم خربت.. والذهب والفضة
والأحجار النفيسة تزين جيد العبيد، في حين تقول السيدات
النبيلات: «واهاً لو كان عندنا على الأقل ما نأكله»، وهن حزانى
بسبب الأسماك التي تكسوهن». وتقوض الاقتصاد (وليس توزيع
الثروات فحسب): «فهناك نقص في المصنوعات.. والبلاد في
خراب تام، ولم يبق شيء، ولا حتى سحم الأظافر لمن كان يمتلكه
في الماضي.. يقيناً لقد زال كل ما هو طيب». وكما لاحظنا فإن
هذه النصوص واضحة كل الوضوح، لقد قامت في مصر ثورة
حقيقية، فكم كنا نود لو كان في مقبورنا أن ندرسها عن كثب،
ولكن لا نجد بين أيدينا للأسف وثيقة تاريخية واحدة تساعدنا على

التصدي لهذه الدراسة، اللهم إلا النصوص التي اخترنا منها بعض المقتطفات والتي ترجع إلى عصر لاحق يبعد كثيراً عن زمن هذه الأحداث. وهذه النصوص هي من وضع كتبة يمكن أن نطلق عليهم وصف «المحافظين» وكانوا مكلفين خصيصاً من جانب ملوك الأسرة الثانية عشرة بتمجيد عودة النظام والاستقرار. فكان من مصلحتهم المبالغة في وصف انحلال المجتمع إبرازاً لقيام ملوك الدولة الوسطى بنشر الأمن والاستقرار. بل إننا لا نعرف إن كانت الثورة قد شملت البلد بأسرها أو ربما تمركزت في منطقة منف.

ولا نعرف بشكل أفضل غيرها من الأحداث التي وقعت خلال هذه الفترة الممتدة. أما القوائم الملكية المصرية وما نتون فيذكرون أسماء الملوك موزعين على أسرتين (السابعة والثامنة)، بيد أننا لا نعلم شيئاً عن هؤلاء الأشخاص، فالأسرة السابعة حسب ما نتون (وتضم سبعين ملكاً - إجمالى مدة حكمهم سبعين يوماً) لم توجد على الأرجح. ويقتصر ما نعرفه عن الأسرة الثامنة، على القوائم الملكية لأن ما نتون قد اكتفى بتحديد عدد ملوكها الإجمالى وهو ثمانية عشر ملكاً، دون أن يذكر أسماءهم.

وفيما مضى، كان من المتفق عليه أن سبعة من حكام أقاليم جنوب الصعيد قد التفتوا - مع بداية الأسرة الثامنة - حول حاكم إقليم «كوبتوس» - فقط حالياً - ليشكلوا مملكة مستقلة. وساد الاعتقاد أن هذه المملكة المحلية لم تعمر لأكثر من أربعين عاماً.

ولكن هايز W.C. Hayes برهن في عام ١٩٤٦ على أن الأسرة المعروفة بالقبطية لم يكن لها أي وجود في الماضي، وانتهت الأسرة الثامنة المنفية (نسبة إلى مدينة منف) حوالي عام ٢٢٠٠ ق.م نهاية غامضة. كانت مصر قد انقسمت آنذاك إلى ثلاثة أقسام: ففي الشمال، ظهر الغزاة الآسيويون حيث كان لهم بالضرورة اليد العليا. أما في وسط البلاد، فقد ظل قائماً في منف ما تبقى من النظام الملكي المركزي العتيق، وفي مصر الوسطى، تلقب «خيتي» حاكم هيرالكيوبوليس - إهناسيا حالياً - بلقب ملك مصر العليا والسفلى، وسرعان ما أصبح يتحكم في منطقة منف وفي الفيوم أيضاً. أما في جنوب البلاد، فقد نحى حكام طيبة ملوك منف، وجمعوا، على ما يبدو، من حواهم الأقاليم الجنوبية. واستمرت هذه الأوضاع بعض الوقت على ما يظن، وإذا استبعدنا الدلتا، تبدو مصر وكثتها قد عادت أدرجها إلى عصور ما قبل التاريخ، لتتقسم إلى مجموعة من الأقاليم، بعضها في مصر الوسطى شمالاً، والآخرى في الجنوب، وزعماء مصر الوسطى (من الأسرتين الإهناسيتين) هم «خيتي» الأول والثاني والثالث ومرى كارع (إلى جانب العديد من الملوك الذين لا نعرف أسمائهم)، أما زعماء الجنوب في طيبة فهم الأناقة والمناحة. وإن شرعت كل من المجموعتين توطد مركزها تدريجياً داخل ممتلكاتها، لم يلبث الصراع أن تفجر بينهما، ولفترة طويلة اكتنف

الغموض الوضع، وتتأوب الطرفان الانتصارات والهزائم. وعلى كل حال فإننا لا نعرف هذه المرحلة معرفة طيبة إلى أن حدث حوالى عام ٢٠٦٠ أن حلت اللحظة التي توحدت فيها مصر من جديد بزعامة أحد المناطقة، سليل حكام طيبة وزعماء أقاليم الجنوب، واعتباراً ومن هذا التاريخ تبدأ الدولة الوسطى.

٣ - الدولة الوسطى ٢٠٦٥ - ١٧٨٥ ق . م

غداة عصر القلائل الطويل الذى انتهى عام ٢٠٠٠ على وجه التقريب، استعادت السلطة وحدتها فى مصر بفضل حكام إقليم طيبة. وإذ بدأت هذه الوحدة على يد حكام هذا الإقليم ومنذ عصر ملوك هيراكليوپوليس (إهناسيا حالياً) بالتحديد، فإن استعادتها لم يكن من صنع فرعون واحد، إنما كانت إنجازاً حققته أسرة ملكية بأكملها، هى الأسرة الحادية عشرة التى كانت، فى أيامها الأولى، معاصرة للأسرة العاشرة الإهناسية التى خلفت الأسرة التاسعة - الإهناسية أيضاً، التى أسسها خيتى الأول (راجع ماتقدم). وبينما ركز زعماء هيراكليوپوليس جلّ اهتمامهم على الدلتا، بل وتوصلوا إلى طرد البدر منها، فقد تحوّل زعماء طيبة صوب النوبة. وبفضل هاتين العمليتين الموازيين، فى الجنوب وفى الشمال، اختمرت وحدة مصر. وسوف تأخذ الأسرة الحادية عشرة على عاتقها مهمة أتمام الوحدة وتوحيد الجنوب مع الشمال.

الأسرة الحادية عشر - (٢١٦٠ - ٢٠٠٠ ق.م تقريباً)
سبق أن عرضنا لتاريخ حكام طيبة الأوائل الذين حاربوا ملوك

هيراكليوبوليس، وكان «المناتحة» أول من اتخذوا لقب ملك مصر العليا والسفلى، وحتى بضع سنوات ساد الاعتقاد بأن اسم «منتوحوتب» قد حمله خمسة فراعنة، وعلى أثر عمل انتقائى طويل للمصادر، أصبح من الأمور المتفق عليها بشكل عام أن عدد «المناتحة» ثلاثة، وأن «منتوحوتب» الأول (٢٠٦٥ - ٢٠١٥) هو الذى نجح فى نشر الأمن والسلام فى مصر. أما عن آخر ملكى هذه الأسرة وهما منتوحوتب الثانى والثالث، فلانعرف عنهما شيئاً يذكر، اللهم إلا أن مدة حكمهما كانت قصيرة.

فى مقدمة إنجازات الأسرة الحادية عشرة توحيد البلاد، بيد أن نشاطها لم يقف عند هذا الحد، فبعد أن وضع «المناتحة» حداً للسيادة الإقليمية التى نمت خلال عصر الانتقال الأول، واستعادوا السلطة المركزية، هادوا إلى انتهاج سياسة التوسع فى النوبة، حيث وصلوا إلى الجندل الثانى على ما يبدو، كما جهزوا طريق وادى الحمامات الذى كان يربط مصر بالبحر الأحمر ويستخدم كنقطة انطلاق إلى سيناء وبلاد بونت (راجع ماتقدم)، ويخترق هذا الطريق الصحراء الشرقية، وجرّد ملوك الأسرة الحادية عشرة الحملات العسكرية ضد البدو المنتشرين فى طول البلاد وعرضها وأقاموا فيها نقاط ماء.

الأسرة الثانية عشرة - (٢٠٠٠ - ١٧٨٥)

لا نعلم شيئاً عن كيفية الانتقال من الأسرة الحادية عشرة إلى

الأسرة الثانية عشرة، ولكن بالنظر إلى وجود وزير يحمل اسم «أممحات» في عهد ملوك الأسرة الحادية عشرة الأواخر، وهو ذات الاسم الذي سوف يحمله فيما بعد مؤسس الأسرة الجديدة فلربما يشير ذلك إلى اغتصاب السلطة. وتعتبر الأسرة الثانية عشرة التي أمسكت بزمام السلطة، حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م، من أعظم الأسرات في التاريخ المصري وأمجدها، ففي ظل إدارتها، لم تحافظ مصر على الاستقرار الداخلي فحسب، بل لقد وصل إشعاعها إلى خارج البلاد كما لم يحدث، دون شك، من قبل، بما في ذلك زمن فراغة الأسرة الرابعة العظماء، ورغم أن الأسرة تنحدر أصلاً من طيبة، فقد عادت لتستقر من جديد في منطقة منف، فمن هنا كان يسهل عليها أن تدير دفة الأمور في البلاد بأسرها.

ركز أممحات الأول (٢٠٠٠ - ١٩٧٠) جلّ اهتمامه على ما يبدو على الشؤون الإدارية، وربما اعتمد عند تسلمه السلطة على فئة الأشراف بالأقاليم، وهو ما يفسّر تجدد بعض نزعاتها الاستقلالية. ومن المحتمل أنه قد اهتم منذ ذلك الوقت بحماية حدود مصر الشرقية، ولكن خلفاءه هم بالتحديد الذين اضطلّعوا بهذه المهمة، وفي النوبة توغل أممحات الأول حتى وصل إلى كورسكو. وانتهى حكمه فجأة على أثر مؤامرة من تدير القصر الملكي، وكان ابنه آنذاك في ليبيا على رأس الجيش، ولكنه استطاع أن يعود في الوقت المناسب لتسلم السلطة.

سنوسرت الأول (١٩٧٠ - ١٩٢٦).

واصل سنوسرت الأول سياسة أبيه في النوبة، فتقدم حتى الجندل الثالث ووضع يده على مناجم الذهب في هذه المنطقة. كان الطريق الموصل إلى هذه المناجم يبدأ من وادي حلفا، ولتأمين سلامة الحملات، أمر سنوسرت بأن تشيد فيه قلعة عند بوهن. ومنعاً لتكرار الأحداث التي أدمت نهاية حكم أبيه قام سنوسرت - وهو على قيد الحياة - بإشراك ابنه البكر في العرش، وساد خلفاؤه على هديه.

كانت سنوات حكم امنمحات الثاني وسنوسرت الثاني على قدر كبير من الضمول وعلى كل حال فإن وثائقها قليلة.

سنوسرت الثالث (١٨٨٧ - ١٨٥٠).

إنه من أعظم فراعنة مصر. وقد جاء الزمن ليجمع من ذكره التي أصبحت مصدر العديد من الخرافات التي جمعها الإغريق، كان قائداً فاتحاً فرحف على فلسطين. وفي النوبة واصل إنجازات امنمحات الأول وسنوسرت الأول بعد أن أهملها سلفاه - على أقل تقدير - ان لم يكونا قد تخليا عنها. ولكنه شن أربع حملات استطاع من خلالها أن يعيد الأوضاع إلى سابق عهدها. واهتم بحماية فتوحاته فشيّد القلاع والحصون.

وانتهت الأسرة الثانية عشرة بسنوات حكم الملك امنمحات الرابع وسويك نفرورع التي كانت تفتقر إلى أي أمجاد، ولا

نعرف عنهما شيئاً سوى ان اضمحلال الأسرة الحاكمة قد سار
بخطى متسارعة فى عهدهما .

لم تسجل العجالة السريعة التى قدمناها لتاريخ ملوك الأسرة
الثانية عشرة ما حققته هذه الأسرة من إشباع فى الخارج وفى
الداخل. وقد كان ازدهار مصر محصلة لنشاط ملوك هذه الأسرة
بأسرهم. وإذا كان الأمر قد اقتضى من امنمحات الأول أن يقض
الطرف بعض الشئ عن الروابط التى كانت تربط حكام الأقاليم
بفرعون، فقد كان أجل هذه السياسة قصيراً، ففى عهد سنوسرت
الثالث أصبحت سلطة الملك مطلقة من جديد، إلى حد إلغاء منصب
«حاكم الإقليم»، وهكذا فبعد أن استعيدت سلطة الملك، أخذت
الأسرة الملكية تستصلح أرض البلاد وفى مقدمتها القيوم التى
حوالها حكام البلاد إلى واحة حقيقية، فشادوا على مقربة منها
مقار إقامتهم الرسمية. كما كان هؤلاء الفراعنة بنائين عظاماً
وأضحت مصر مدينة لهم بمجموعة من التحصينات فى جنوب
البلاد وشرقها، تحميها من أعدائها. وكان قصر امنمحات الثالث
فى هواره ذا شأن عظيم، فتولدت عنه حكاية إغريقية خرافية -
هى حكاية اللابيراننت (أو قصر القيه)، أما فيما يتعلق بروابط
مصر بالبلدان الأجنبية فيبدو أن علاقات مصر بسوريا وببيلوس
كانت وطيدة وودية. وقد تساءل البعض - نون إجحاف للحقيقة -
عما إذا كانت فينيشيا لم تخضع فى عهد الأسرة الثانية عشرة

لإدارة حاكم مصرى، وانتظمت عملية استغلال سيناء وخرج المصريون فى حملات تجارية إلى بلاد بونت - وامتدت حدود مصر جنوباً لتصل إلى سمنا (٧٠ كم جنوبى وادى حلفا، راجع الخريطة رقم ١) - حيث أقيمت منطقة محصنة حق التحصين - على قدر كبير من التشعب والتعقيد، فمنعت من الآن فصاعداً القبائل السودانية المشاغبة على الدوام من أن تتوغل داخل مصر، وباعتماد ملوك الأسرة الثانية عشرة على تحصينات الجندل الثانى المنيع، استطاعوا أن يدفعوا بالحملات التجارية إلى قلب السودان، وقد احتفظت مدينة كرما جنوبى الجندل الثالث (راجع الخريطة رقم ١) ببصمات هذا النشاط عند المستوى القديم من مبانيها، أما الروابط مع جزيرة كريت التى يرى البعض أنها كانت أمراً محققاً، منذ هذا العصر، فمازالت معرفتنا بها قاصرة جداً، مما يصول بون أن تعرض لها، بيد أن هذه الروابط قد تؤكد وجودها، على ما يبدو، عن طريق فينيقيا.

وهكذا فإن مصر فى ظل الدولة الوسطى، كانت ذات تنظيم داخلى صارم، ويحميها فى الجنوب وفى الشمال الشرقى نظام تحصينات منيع حتى سارت لا تخشى شيئاً من الخارج، ولكن هذا الأمن كان فى واقع الأمر عابراً، لاعتماده على قوة السلطة المركزية من جانب، وعلى ضعف أعداء مصر الآسيويين من جانب آخر.

ولكن هذين الشرطين اللازمين لأمن مصر تقوضاً خلال عدة

سنوات،

٤ - عصر الانتقال الثاني

١٧٨٥ - ١٥٨٠ ق . م

إن عصر الانتقال الثاني هو بالتأكيد أكثر عصور تاريخ مصر غموضاً، وأقل هذه العصور من حيث ما نعرفه عنه. ولا يزال الجدل دائراً في وقتنا الراهن حول مدته. فبعد أن ساد الاعتقاد بأن مدته كانت طويلة جداً (فإذا جمعنا الأرقام التي يقدمها لنا ما نتون عن الأسرات ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ التي تؤلف هذا العصر نصل إلى مجموع كلي يساوي ثلاثة وثمانين وخمسمائة وألف سنة!) فإن من المتفق عليه، بشكل عام، في الوقت الراهن - أن هذا العصر لم يستمر لأكثر من مائتي سنة - بل إن أحدث هذه النظريات تقدم رقماً أقل بكثير. إن هذا العدد الهائل من الملوك الذين حكموا مصر خلال هذه البرهة الزمنية القصيرة نسبياً، يمكن تفسيره على أساس أن هذه المرحلة الانتقالية كانت تتكون من أسرات «متوازية»، فتحكم إحداها في الشمال وغيرها في مصر الوسطى وأخرى في الجنوب، ومن المحتمل أن يقدم ذات يوم مؤرخو الشرق الأدنى الآسيوي بعض الإيضاحات حول التتابع الزمني لهذا العصر. فالعديد من نقاط الإتصال كانت تربط مصر بآسيا آنذاك. وقد يكفي أن نحدد بعض التواريخ على الجانب الآسيوي للوصول إلى نقاط استدلالية كافية بالنسبة لمصر. وأيّا كانت مدة عصر الانتقال الثاني، فمن الممكن أن نميز بين

مراحل ثلاث - ونبدوها بمرحلة الأسرات، حيث ظل الملوك المصريون يحكمون بمفردهم. ثم مرحلة غزو واغتصاب أجنبي، وأخيراً مرحلة استعادة المصريين للبلاد، وبالطبع لم تفصل بين الأحداث في واقع الأمر مثل هذه الحدود القاطعة. فقد بدأ غزو الهكسوس في المرحلة التي لم تكن قد شهدت بعد تقويض النظام الملكي (بل إن البعض قد حدد بدايته منذ الأسرة الثانية عشرة). كما أن استعادة المصريين لبلادهم قد بدأ خلال عهد الغزاة الهكسوس.

الأسرتان ١٣ و ١٤ والملوك الوطنيين الأواخر

لا نعرف عن الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة سوى أسماء ملوكها الفرعنة، وفي البداية كانت هيبة الأسرة الثانية عشرة لاتزال قوية بتأثيرها إلى حد أن جعل الملوك أسماء امنمحات وستوسرت رغم أنه من المستبعد أن يكونوا من سلالة هؤلاء الأفراد، ولا نعرف شيئاً تقريباً عن مسار الاضمحلال الزاحف، وإن بدا أن حكم امنمحات - سوبك هوتب - وهو أول ملوك الأسرة الثالثة عشرة قد امتد إلى مجمل تراب مصر، وينسحب نفس الشيء على ما يبدو على خلفه المباشر «سى عنخ تاوى - سخم كارع» ويصبح التحقق من ترتيب تعاقب الملوك بعد هذين الفرعونين من أكثر الأمور صعوبة، كما أننا لم نعد نعرف إلى أي مدى امتد سلطانهم، وكانت أعدادهم من الكثرة بحيث

تساؤل البعض ما إذا كانوا «منتخبين» لأجل محدود فحسب. وكان النظام الملكي ميالاً على ما يبدو إلى أن يحتسب بالجنوب، فاستقر به المقام في منطقة طيبة. بيد أن كشافاً موقفاً بمدينة بيبيلوس يشير إلى أن أحد الملوك المدعوين «نفرحوتب» (راجع الجدول في آخر الكتاب) كان لا يزال يتمتع على ما يبدو بقدر من النفوذ في فينيقيا. ولا نعرف شيئاً عن الانتقال من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة الرابعة عشرة، ويبدو أن الفوضى قد تفاقمت بسرعة بالغة. وعندئذ حسب رواية مانتون، بدأ غزو الهكسوس. ولكن الغزاة كانوا قد استقروا في واقع الأمر في شرق الدلتا منذ بداية الأسرة الثالثة عشرة. ومن الراجح أن حركة انتشار الهكسوس قد تزايدت فيما بين ملوك الأسرة الثالثة عشرة الأواخر وأوائل ملوك الأسرة الرابعة عشرة. وفي حقيقة الأمر كان «نحسي» (التوي) - وهو آخر ملوك الأسرة الرابعة عشرة، يعتبر نفسه - منذ ذلك الوقت - تابعاً للهكسوس، ومن ثم فإن الغزو كان قد وصل إلى مرحلة متقدمة جداً.

الهكسوس

ورد اسم «الهكسوس» عند مانتون. وهو ما يبدو تصحيف للاسم المصري المركب «حقا خاسوت» الذي يعنى «زعيم البلدان الأجنبية». ولم ينحدر جميع هؤلاء الأجانب من أصل عرقى واحد، ومع ذلك فقد كان أكثرهم من البدو الساميين على الأرجح. إن غزو الهكسوس مرتبط بمرحلة الهجرات الواسعة التي عمّت جميع أرجاء

آسيا. ويرتبط بالغزو الأري الذي حدث في الألف الثاني للشرق الأدنى. فاستقر الحيثيون في الأناضول حوالي عام ١٩٢٥ ق.م والخاسيون في يابل والحدريون في ميتاني (راجع ملاحق الكتاب: الخريطة رقم ٢). وأثناء زحفها دفعت هذه الشعوب البدو الساميين المتواجدين أمامها في اتجاه الغرب، فهذه الموجة السامية - وقد انضمت إليها عناصر أخرى ربما كانت هندو أوروبية - هي التي توغلت إلى داخل مصر.

ويعد أن غزا الهكسوس الدلتا، حيث قاموا بتحصين مدينة أواريس ليتخذوا منها عاصمة لهم، واصلوا زحفهم في بداية الأمر حتى منف، ثم تجاوزوها. لقد تأسست أواريس عام ١٧٣٠ ق.م. تقريباً أي بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة بمائة وثمانية وخمسين سنة. ويحتمل أن ملوك الأسرة الثالثة عشرة قد نجحوا لفترة طويلة إلى حد ما في وقف زحف الغزاة في الدلتا، حتى إذا انتهت هذه الأسرة واصل الهكسوس تقدمهم. انقضت إذن فترة طويلة والدلتا خاضعة للسيطرة المشتركة لكل من الهكسوس والمصريين الذين احتفظوا فيها بقدر من السلطة السياسية، ولكننا لا نعرف حقيقة العلاقات القائمة بين العنصرين. ومن السهل علينا أن نتخيل البدو الغزاة وقد اكتفوا بسلب السكان المحليين وفرض الإتاوات عليهم، وانصرفهم عن شئون الإدارة، في حين كانت الحكومة المحلية المصرية، من ناحيتها أضعف من أن تتصدى لهم، فقبلت الأمر

الواقع، ولكن كان من المحال أن تستمر هذه الأوضاع. لقد ظلت أعداد جديدة من الفرزة تقدر بون انقطاع لتدعم الوافدين الأوائل، ثم بدأ الهكسوس تدريجياً ينظمون صفوفهم فاختراروا من بينهم زعيماً وحيداً، تولى فتح مصر بأسرها. وسواء أكانت الإدارة المصرية قد بلغت خلال ذلك العصر مستوى من الانحلال التام، أم كان الوافدون الجدد قد اكتسحوا الجيش المصري بما لهم من قوة عسكرية تفوق قوة المصريين، بفضل اعتمادهم على تنظيم أو تسليح لم يكن المصريون قد توصلوا إليه بعد، يبقى أن انتصار الهكسوس كان خاطفاً على ما يبدو. واحتفظ عنه المصريون بذكرى مخيفة، ربما بالغت منها الدعاية الملكية، ولكنهم ظلوا يذكرونه فيما بعد على الدوام.

إننا ننتقل إلى الوثائق التي تعيننا على عرض وقائع غزو ملوك الهكسوس لمصر واستقرارهم فوق مجمل ترابها. ومن بين أسماء الملوك الأجانب الستة التي وصلتنا عن طريق مانتون، لم نتحقق سوى من خمسة أسماء منها وجدت مدونة على الآثار المصرية، هي: «خيان» و «أبيبي الأول» و «أبيبي الثاني» و «عاسح رع» و «عاقن رع - أبيبي الثالث». ومن الراجح أن مدة حكم هؤلاء الملوك كانت قرناً من الزمن وغطوا القسم الثاني من عصر الانتقال الثاني - وما زال ترتيب تعاقبهم أمراً غير مؤكد، ماعدا بالنسبة لأبيبي الثالث الذي يعتبر يقيناً آخر

ملوك الهكسوس بالنظر إلى أنه كان في سدة الحكم في أواريس عندما طرده منها المصريون، ومن ناحية أخرى، فمن الراجح أن سيطرة الهكسوس على مجمل البلاد كانت قصيرة الأجل، فسرعان ما فقدوا سيطرتهم على مصر العليا ليقتصر سلطانهم على الدلتا مما سهل على المصريين تحرير بلادهم. ومن جانبهم فقد انتهز السودانيون التوبيون فرصة اضطراب النظام الملكي المصري وبعد ملوك الهكسوس الذين استقروا في الدلتا، لإقامة مملكة مستقلة جنوبي الجندل الأول، وإلى هذا العصر ترجع على ما يبدو مملكة كوش الموحدة الأولى التي اتخذت على ما يحتمل من «كرما» عاصمة لها.

الأسرة السابعة عشرة وتحرير مصر

الأرجح أن الهكسوس عندما فزوا مصر اكتفوا في معظم الأحوال بفرض دفع الجزية مع الإبقاء على الإدارة المصرية كما هي، لقد عادت مصر لتتقسم في واقع الأمر إلى ثلاثة أقسام. ففي الدلتا ومصر الوسطى كان الهكسوس يحكمون حكماً مباشراً، أما مصر العليا، فكانت خاضعة لتبعية الأجنبي وإن ظلت مستقلة من الناحية العملية. وأخيراً كانت النوبة - بلاد كوش - قد استعادت حريتها ويحكمها سوداني، وفي أول الأمر، انقسمت مصر العليا - على ما يبدو - إلى عدد من الممالك الصغيرة، وفرض عليها ملك طيبة نوعاً من الإشراف، وهكذا وقع مرة أخرى على

عائق سادة طيبة مهمة توحيد البلاد، وحمل أوائل هؤلاء الملوك
الطبيين المعاصرين للهكسوس لقب «أنقف» أو «سويك إم
ساف»، ولا نعلم شيئاً عن نشاطهم، عدا أنهم قاموا تدريجياً
بتجميع أقاليم الجنوب من حولهم، وكان هؤلاء الملوك الطبييون
تابعين من الناحية النظرية للهكسوس المقيمين في اواريس. ومن
الراجح أن الحرب المعلنة ضد المحتلين الأجانب قد بدأها تاسع
هؤلاء الملوك الصاعدة، وهو «سقتن رع - تاعا»، وقد تم
العثور على مومياء هذا الملك ورأسها مثخنة بالجراح، مما حمل
العلماء إلى التسليم بأن «سقتن رع» قد قتل في ساحة الرضى. (بل
ظن الطبيب الذي تولى فحص المومياء بأنه توصل إلى ظروف
مصرع الملك). ولكن حقيقة أن المصريين قد تمكنوا من حمل
الجثمان وتحنيطة هي دليل على سيطرة الجيش المصرى على
أرض المعركة. إنه الافتراض لبق وبارع، ولكن يصعب التحقق منه.
فمن الممكن أن يكون الملك قد لقي حتفه نتيجة اغتياله أو حرب
أهلية وإن ظل أنصاره محتفظين بالسلطة. وأى كان الأمر، فقد
استمرت الحرب في عهد ابن «سقتن رع وخلفه «كامى» الذى
نجح فى إلحاق الهزيمة بالهكسوس شمالى هرموبوليس
(الأشمونين - حالياً) ثم واصل المعركة إلى الشمال، ويخبرنا نص
اكتشف حديثاً فى الكرنك أن ملك الهكسوس قد سعى إلى
التحالف مع ملك كوش ليرفع من قدراته الدفاعية فى مواجهة

كامي وأن المصريين شنوا غارة على أواريس، دون أن يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة.

كان آخر عمل على طريق التحرير من نصيب خليفة كامي وأخيه «أحمس» الذي سوف يصبح أيضاً مؤسس الأسرة الثامنة عشرة، عندما سينجح في تحرير مجمل تراب مصر، وأصل أحمس النضال حتى وقف مرة ثانية أمام أواريس فضرب من حولها الحصار واستولى عليها، ثم طارد الغزاة حتى جنوب فلسطين. ووضع هذا النصر نهاية لعصر الانتقال الثاني وبه تبدأ الدولة الحديثة أو عصر الإمبراطورية الطيبة الثانية.

إن مانعنا من تاريخ عصر الانتقال الثاني ضحل للغاية بحيث لا نستطيع أن نقيم ما ترتب عليه من نتائج بالنسبة لتاريخ مصر اللاحق. كانت الكارثة قاسية وشاملة فهزّت البلاد هزاً، فحتى تلك اللحظة كان البدو الآسيويون بالنسبة للمصريين جيروناً مزعجين ولكن دون أن يكونوا خطرين، وكان الهدف على ما يبدو من إقامة «جدار الأمير» الذي شاده ملوك الأسرة الثانية عشرة عبر برزخ السويس، هو أن يحول إلى الأبد دون قدوم البدو السلّابيين «فتشرب قطعانهم من ماء النيل»، وجاء غزو الهكسوس ليثبت أن هذا الاحتياط كان غير كاف، وشرعت آسيا القوية تهدد من الآن فصاعداً أبواب مصر، تلك هي الحقيقة الجوهرية التي ستحدد الآن مجمل تاريخ مصر.

٥ - الدولة الحديثة

(١٥٨٠ - ١٢٠٠ ق . م)

ينتهي تاريخ مصر الكلاسيكي مع الدولة الحديثة ومع نهاية هذه المرحلة لن تشهد مصر ثانية العظمة والقوة اللتين بلغتهما في ظل كل من الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة، على التوالي، وسيتحول تاريخها إلى عصر انحطاط ممتد أشبه بمرحلة انتقالية ثالثة، لن يشرق لها غد، ولكن قبل أن تدخل مصر مرحلة الاحتضار الطويلة هذه، عاشت عصرًا مشرقًا جدًا: عصر الدولة الحديثة، ويقف هذا العصر في العديد من قساماته على النقيض مما سبقه من عصور، وبدايةً، فإن جنت منطقة طيبة ثمار مقاومتها العنيدة لمختلف ألوان العسف، فقد أصبحت مركز مصر الإداري بعد أن ظل قائمًا حتى عصر الانتقال الثاني في منف وفي مصر الوسطى، ويستجيب انتقال مقر الحكومة لضرورة جغرافية جديدة، فقد رأى أن التوسع جنوب الجنوب قد اكتمل بعد أن وصل إلى الجندل الرابع على مقربة من نياتا (راجع الخريطة رقم ١) ومن الآن صارت مصر تمتد في واقع الأمر من خط عرض ١٧ وحتى البحر المتوسط بطول ٢٢٦٠ كم على امتداد وادي النيل، وكان من الطبيعي لإحكام الإشراف على هذه الأراضي الشاسعة واستثمارها، أن تقام العاصمة الإدارية على مقربة من مركزها بقدر المستطاع، ومما زاد من ضرورة ذلك الأمر، أن مصر

أصبحت تستمد الآن جانباً كبيراً من مواردها من خلال
امبراطوريتها الإفريقية: الذهب والمواد الأولية (كالخشب والجلود
والعاج والصمغ والأحجار نصف الكريمة الخ...) والقطعان والبشر
على وجه الخصوص لإمداد الجيش والشرطة. وكان من المستحيل
على مصر التغلغل في آسيا لولا ارتكازها على مؤخرتها
الإفريقية. وإذا كانت الدولة الحديثة – بالمقارنة مع غيرها من
عصور الوحدة – تختلف من حيث موقع عاصمتها، فإنها تتميز
أيضاً دون أدنى شك بسياستها الخارجية، فبينما كانت السياسة
العسكرية للدولة الوسطى والدولة القديمة، على وجه الخصوص،
تتميز بأنها دفاعية (مع عدم استبعاد شن «الغارات» على العدو)
فقد دشنت الدولة الحديثة سياسة الفتوحات أو ما نسميه بلغة
العصر – سياسة استعمارية. وكان هذا الموقف جديداً على مصر،
كما سبق أن لاحظنا أن سياسة مصر التقليدية تجاه الآسيويين
كانت قد تجاوزتها الأحداث، إن مصر التي قنست من غزو أجنبي
استمرّ قرنين من الزمن، سوف تسعى إلى تجنب تكرار مثل هذه
الكوارث، بالتوسع شرقاً قدر استطاعتها، وستعمل جاهدة على
إيجاد أكبر مسافة ممكنة بينها وبين بدو آسيا المشاغبيين، بعد أن
عقدوا فيما بينهم شكلاً من أشكال الإتحاد الكنفدرالى، بتحريض
من الميثانيين، وهم الغزاة الآريون الذين حطوا رحالهم فيما بين
نهر العاصى وأعلى نهر الفرات، وسوف تترك هذه السياسة الجديدة

بصماتها العميقة في الحضارة المصرية، فرغم الغزوات والتوغلات الأجنبية ظلت مصر حتى هذا العصر تعيش على رصيدها الخاص، ولما توغلت مصر بعمق في الشرق فإنها أقامت علاقات حميمة مع كبرى حضارات الشرق الأدنى الآسيوي، وإن كانت قد بقيت على أصالتها وعلى مصريتها إلا أنها خلصت من كل ذلك وقد تبدلت تبدلاً كبيراً، في زيتها وفي تسليحها، بل وفي حياتها اليومية ذاتها، فالنوق المصري الذي ظل حتى الآن بالغ البساطة والاعتدال، بات يميل إلى بذخ وترف شرقيين إلى أقصى حد، نستشفهما عبر ما نشاهده من أبهة غير مرتقبة مع قدر من التناقل أحياناً في مقبرة توت عنخ آمون، ولا داعي إلى الإفراط في الشكوى، فإن الفن في هذا العصر قد اكتسب سلاسة ورقة بقدر ما فقد من قوة، إنه جانب آخر من جوانب العبقريّة المصرية.

الأسرة الثامنة عشرة - ١٥٨٠ - ١٣٢٠ ق . م

كما سبق أن لاحظنا مراراً لا يوجد فاصل واضح بين الأسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة، فأخر ملوك الأسرة السابعة عشرة هو أيضاً في ذات الوقت أول فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، إن ما يبرر تغير الأسرة واسم الفرعون هو الإستيلاء على مدينة أوراريس الذي يضع حداً لاحتلال الهكسوس ويحدد بداية توحيد مصر من جديد.

أحمس ١٥٨٠ - ١٥٥٨ ق . م

وهو معروف بفضل تضالته ضد الهكسوس، على وجه

الخصوص، ويقدم لنا أحد النصوص صورة إجمالية عن وقائع هذا الصراع والاستيلاء على أواميس، ولا نعرف شيئاً عن نشاطه في الداخل، اللهم إلا أنه قد شيّد معابد جديدة للآلهة، وأخذ الدين يتسرب بالتدريج إلى التاريخ السياسي ففي مصر لا يصرع الملك أعداءه، بل الإله هو الذي يسوغ للملك أن يهزمهم، وكما سنلاحظ فيما بعد لم يكن الأمر مجرد صيغة بلاغية، لقد بدأت الحكومة تتطور شيئاً فشيئاً نحو نظام ثيوقراطي إلى أن جاءت اللحظة التي أصبح فيها كبار كهنة آمون سادة البلاد الحقيقيين، وبعد أن قام أحمر بتصفية الخطر الأسيوي في أعقاب الاستيلاء على شارهين في فلسطين، استكمل نشاطه التوحيدي، فضم النوبة إلى مصر بعد أن كانت قد تحررت خلال عصر الانتقال الثاني وتحالفت على ما يحتمل مع الهكسوس، وطوال عهده توالى حركات العصيان في بلاد كوش واضطر أن يجهز ثلاث حملات إليها، ويبدو أنه وصل حتى جزيرة صامى بين الجندين الثاني والثالث، ومن الراجح أن أحمر قد قام مرة في نهاية حكمه بحملة إلى فينيقيا.

واصل المنحوت الأول بن أحمر عمل أبيه، وحذا حذوه فشيد العديد من المعابد وشن حملة إلى النوبة ووطد مركزه في وادي حلفا، ولا نعرف شيئاً عن نشاطه في آسيا، وإن كان قد اضطر هو أيضاً أن يقود حملة إليها بالنظر إلى أن خلفه قد أعلن

عند اعتلائه العرش أن مملكة مصر تمتد حتى نهر الفرات، بيد أن
أحمس لم يصل بالتأكيد إلى هذا المدى.

تحوتمس الأول - (١٥٢٠ - ١٥٢٠ ق . م)

لم يرزق امنحوتب الأول من زوجته الشرعية سوى إناث، بيد أنه
كان للإناث في مصر، على ما يبدو، حقوق على عرش أبيهم، لئن
أن يكون لهن الحق في أن يحكمن بمفردهن. وقد تسلم أحد أبناء
امنحوتب غير الشرعيين السلطة وحمل اسم تحوتمس الأول، ولكن
تدعيماً لحقه في العرش أو ربما لاكتساب هذا الحق، تزوج من
أخته غير الشقيقة «أحمس» ابنة امنحوتب الأول، والملكة الشرعية.
وإذ واصل تحوتمس الأول سياسة أسلافه المباشرين في النوبة،
فقد زحف جنوباً ليصل إلى الجندل الرابع، أما في سوريا، فقد
وصل حتى نهر الفرات، حيث أقام لوحة حدودية، ولكن ربما كان
الغرض من ذلك لئن ريب مجرد غارات سلب ونهب هدفها جمع
الجزية.

تحوتمس الثاني - (١٥٢٠ - ١٥٠٥ ق . م)

إن مشكلة وراثته العرش التي كانت قد طرحت عند وفاة
امنحوتب الأول، طرحت نفسها من جديد، وفي ظروف مماثلة، عند
وفاة تحوتمس الأول الذي لم يرزق من المواليد الشرعيين سوى
بإناث. وفي هذه المرة أيضاً اعتلى عرش البلاد ابن غير شرعي
هو تحوتمس الثاني، وإلضفاء الشرعية على الوضع، تزوج

تحوتمس الثانى من أخته غير الشقيقة: حتشبسوت، الإبنة الشرعية لتحوتمس الأول، وشهد حكم تحوتمس الثانى حركتى تمرد، الأولى فى بلاد كوش والأخرى فى سوريا، وقمع الملك كليهما، ولكن تكرار هذه الأحداث يلقى الضوء على هشاشة «فتوحات» الجيش المصرى، فيشن هذا الجيش إغاراته ليعود أدراجه كلما انتهت مهمته، فلا وجود لاحتلال حقيقى، وإذا حدث صدفة أن خلف المصريون وراءهم قوات متحصنة فى القلاع لمراقبة البلاد المحتلة فإن الهدف من هذه القلاع كان بالأحرى هو حراسة طريق من الطرق، أكثر منه حكم أهل هذه البلاد.

تحوتمس الثالث وحتشبسوت

إن تحوتمس الثانى، شأنه شأن أبيه، لم يترك عند وفاته من الأبناء الشرعيين سوى إناث وابن غير شرعى أنجبته منه إحدى المحظيات. وكنا ننتظر أن نرى هذا الابن وقد تربع فى سدة الحكم، أسوة بما جرى مع تحوتمس الأول وتحوتمس الثانى، وهو ما حدث بالفعل فى بادئ الأمر. فعند وفاة تحوتمس الثانى أعلن ابنه غير الشرعى تحوتمس الثالث ملكاً. ولكنه كان لا يزال فى مقتبل العمر، فتولت عمته حتشبسوت، زوجة تحوتمس الثانى، الوصاية على العرش، وشيئاً فشيئاً، تحوت هذه الوصاية إلى ملك حقيقى فحكمت حتشبسوت بمفردها اثنين وعشرين سنة، لئن أن ندرى أين قامت بإبعاد ابن أخيها، ومن المثير حقاً أن نعرف

موقف كهنة آمون خلال هذه الفترة بالنظر إلى أنهم كانوا هم الذين أعلنوا تحوتمس الثالث ملكاً في أعقاب وفاة تحوتمس الثاني. ولكننا نلاحظ أن كبير كهنة آمون كان فيما بعد من المخلصين للملكة حتشبسوت التي دعمت سلطتها فأعلنت نفسها إبنة الإله آمون ذاته. فمن الراجح إذن، أن كهنة هذا الإله قد لعبوا دوراً بارزاً في خلافة العرش، سواء راوغتهم حتشبسوت أو أنهم اضطلعوا بهذا الدور من تلقاء أنفسهم.

كان حكم حتشبسوت على الصعيد العسكري هادئاً، إما لعدم ثقة الملكة في الجيش أو لعدم قدرتها على قيادته بنفسها. وحلت الحملات التجارية محل الحملات العسكرية وعلى رأسها تلك المتجهة إلى بلاد بونت. وتتألق هذه المرحلة بأبهة نضرة، على الصعيد الفني. ويظل معهد حتشبسوت الجنازى في الدير البحرى الذى شيده أثيرها ومهندسيها المعماري سنعوت أية من آيات الجساروة والاتزان.

تحوتمس الثالث - (١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق.م)

استطاع أن يستعيد السلطة في أعقاب وفاة حتشبسوت. وهدافع مما كان يحمله من ضعفية ضد عمته، أخذ يضطهدها بعد وفاتها - اضطهاداً حقيقياً. فأمر بقتل اسمها من على جميع الآثار واستبدله إما باسمه أو باسمى أبيه وجده. ولكن لحسن حظنا لم يقنع تحوتمس الثالث بدور المخرب بل واصل تقاليد عائلته فشيّد العديد من المعاصر، لاسيما في طيبة.

ولكن يدين تحوتمس الثالث بأعظم أمجاده لتشاطه العسكرى، فكان بكل تأكيد من المع فراعنة مصر، فهو الفرعون الذى مد سلطة بلادة إلى أبعد مدى، فبعد أن ضمنت له السياسة النوبية لأسلافه الهدوء فى الجنوب، استطاع ان يتحول صوب الشرق الذى أضحى مصدر الخطر الرئيسى على الفراعنة، وبالفعل فحفظ فى آسيا أن المبتانين قد استغلوا، على ما يبدو، تجميد حتشيسوت لكل نشاط لها، ليشجعوا على قيام تحالف معاد لمصر. كان هذا التحالف بزعامة ملك قادش وقام بتحسين آسيا مرة أخرى ضد المصريين، مما اضطر تحوتمس الثالث إلى القيام بسبع عشرة حملة للقضاء على هذا التحالف قضاء مبرماً وبسط الهيمنة المصرية من جديد على بلدان المشرق، حقيقة لم تكن جميع هذه الحملات على نفس القدر من الأهمية، إذ لم يكن بعضها أكثر من مجرد حملات تفقدية مسلحة، وأخرى غارات تأديبية محدودة. هل تصرف تحوتمس الثالث وفقاً لخطط استراتيجى معد سلفاً؟ يبدو الأمر كذلك، وإن كان المرء معرضاً للوقوع ضحية وهم، كما أنه يستحيل تقييم الموقف تقييماً سليماً لافتقادنا إلى الوثائق. وبالفعل فإنه لم يقدم على الفور على مهاجمة المبتانى الذى كان عدوه الحقيقى والذى كان وراء حركات التمرد ضد مصر، فشرع يؤمن لنفسه أولاً قواعد راسخة، حتى قام فى نهاية المطاف بتوجيه ضربته القاضية.

وهي الحملة السنوية الأولى التي قادها تحوتمس الثالث، وقعت
سوريا وفلسطين في قبضته، ثم قضى ثلاث سنوات ينظّم أحوال
هذين البلدين، وركزَ بعد ذلك اهتمامه على طرق مواصلاته. وخلال
حملته الخامسة استولى على ميناءٍ في فينيقيا، فأصبح في
مقدوره، من الآن فصاعداً، أن يتجنب الطريق البري الصحراوي
الطويل، ومن ثم فقد ركب البحر عند القيام بحملته السادسة التي
تمكن خلالها من الاستيلاء على قادش الواقعة على نهر العاصي
(راجع الخريطة رقم ٢)، وهي المركز الرئيسي لأعدائه، ولكن
القواعد التي أقامها لم تكن بعد على قدر كافٍ من الأمان، فنُتبت
مدى ضعفها لما نشب تمرد في فينيقيا. ولذا كرّس الحملة السابعة
للاستيلاء على العديد من موانئ فينيقيا، وما أن فرغ من هذه
الغزو حتى استشعر أنه أصبح من القوة ليشن مجوماً عظيماً.
فكانت الحملة الثامنة، فرحل بحراً ونزل برأ في فينيقيا واخترق
سوريا وبلغ نهر الفرات، فعبره على متن سفن شيدت بناء على
أوامره في بيبلوس وحملها معه عبر الصحراء. والتقى بالميتانيين
فأوقع بهم الهزيمة وطاردهم وسط الجبال، وكان لهذا النصر وقع
الصاعقة. فلم ير الميتانيون وحدهم أنه من الحكمة أن يدفعوا
الجزية للمنتصر، بل أن جيرانهم أيضاً من آشوريين وبابليين
وحيثيين الذين لم يقاتلوا مصر كان لهم رأى مماثل.

ويفضل هذا الانتصار على الميتاني صار قسم كبير من الشرق

الأدنى الآسيوي خاضعاً للنفوذ المصري، ولم تكن الحملات التسع التالية سوى حملات «للحفاظ» على المكاسب السابقة، ويتضح في حقيقة الأمر أن البلد المفتوح لا يتم احتلال جميع أرجائه، ويكتفى فرعون بأن يصطحب معه إلى مصر أبناء الأمراء والزعماء المهزومين، وفي مصر يأمر بتنشئتهم قبل أن يعيدهم إلى بلدتهم ممثلين للحضارة المصرية، وكان هذا الأسلوب شير كافٍ إلى حد ما؛ وسوف ترى أنه رغم قوة موقف مصر في آسيا إلا أن الأمر كان يحتاج على الدوام إلى غارات مسلحة جديدة تدعياً له، وفي عام ١٤٦٤، على أيام تحوتمس الثالث نفسه، عقد أمراء قادش وتونيب (مدينة سورية حصينة، على مقربة من نهر العاصي) تحالفاً أخيراً، ولكن قام المصريون بحملة جديدة استعداداً في أعقابها مدينتي تونيب وقادش معاً، وستظل آسيا هادئة على الأقل حتى وفاة الملك التي حدثت عام ١٤٥٠.

وقرب نهاية حكمه اغتنم تحوتمس الثالث فرصة قيام السودانين بحركة تمرد محلية على ما يرجح، ليعزز من وجوده حتى الجندل الرابع، ومن ثم «كانت مصر في عام ١٤٥٠ تمتد من نباتا عند النيل الجنوبي وحتى نهر الفرات، وبلغت مصر أوج قوتها التي ما فتئت تضعحل فيما بعد بالتدريج وإن أمكن الحفاظ على هذه القوة لأكثر من قرن من الزمن.

أمحوتب الثاني - ١٤٥٠ - ١٤٢٥ ق. م

أشرك تحوتمس الثالث، وهو على قيد الحياة، ابنه البكر في

العرش، ليجنيه ما عانى منه هو نفسه من متاعب أيام حتشبسوت. لقد خلف إذن امنحوتب الثاني والده دون عائق. وكان حكمه هادئاً في الداخل، وفي الخارج اغتتم سكان سوريا وفلسطين فرصة وفاة تحوتمس الثالث ليشقوا عصا الطاعة، ولكن امنحوتب قمع تمردهم وأمر باعدام الزعماء السوريين السبعة الذين أسرهم أثناء حملته، وعلى كل حال، فقد شرعت الأوضاع في آسيا تتبدل، فالميتانيون الذين ظلت لهم الهيمنة حتى الآن، أخذوا يخشون الحيثيين (المقيمين في الأناضول)، فدفعتهم خشيتهم هذه إلى التقرب من المصريين.

تحوتمس الرابع - ١٤٢٥ - ١٤٠٨ ق . م

لا يوجد أدنى شك في أنه لم يكن ابن أمنحوتب الثاني البكر، وإن كنا لا نعرف كيف وصل إلى سدة الحكم. ومع ذلك فقد جرت خلافة العرش دون هدام شأنه شأن سلفه، ساد الهدوء سنوات حكمه، وجهز حملتين، الأولى إلى السودان والثانية إلى آسيا، وكانت هذه الأخيرة تفقدية أكثر منها حملة بمعنى الكلمة. وبالفعل كانت الأوضاع في آسيا قد تغيرت تغيراً ملحوظاً حتى بلغ خطر الحيثيين حداً دفع بالميتانيين، وهم أعداء المصريين القدامى، إلى السعي دون تردد في طلب صداقة فرعون. فأبرم البلدان معاهدة مهرها تحوتمس الرابع بزواجة على مايبينو من أميرة ميتانية، فدان لها ابنه أمنحوتب الثالث، على ما يظن، بما يجري في عروقه من دم هندو أوروبي.

أمنحوتب الثالث - ١٤٠٨ - ١٣٧٢ ق . م .

خلف أباه بشكل طبيعي، وكثيرا ماخرج في رحلات صيد في بداية عهده ولكن يبدو أنه لزم الهدوء في قصره فيما بعد، وتزوج من امرأة ذات أصول غامضة وربما كانت أجنبية. وعرج أمنحوتب على السودان حتى وصل منطقة الكرو التي رأى البعض أنهم قد تحلقوا من وجودها في المنطقة الممتدة جنوبي نياتا والجندل الرابع مباشرة، ومن الراجح أنه لم يتدخل في آسيا حيث بقي التحالف مع الميتاني ساري المفعول، واختار ملك مصر زوجته من الميتاني ومن بابل، ولكن تطور الأوضاع السياسية في آسيا، الذي بدأ في عهد جده، أخذ يتسارع بإطراد واصطدم الحيثيون بالميتانيين الذين لم يتمكنوا من ردهم على أعقابهم إلا بمساعدة القوات المصرية، ونجم عن تدخل هذه القوات أن تحول الحيثيون ضد مصر ذاتها منذ أواخر حكم أمنحوتب الثالث.

أمنحوتب الرابع - أخناتون (١٣٧٢ - ١٣٥٤)

شارك أمنحوتب الرابع ابن أمنحوتب الثالث أباه في الحكم لعدة سنوات، وذاعت شهرته في تاريخ العالم، فعرف باسم «صاحب الهدمة». وفي عهده تبوأ الدين مكان الصدارة. ولكن لا ينبغي أن نغفل أنه ماكان للدين أن ينتظر عهد أمنحوتب الرابع ليؤثر في السياسة المصرية، كما أن جانباً من إصلاحه الديني قد ولد في أفكار صيغت في عهد أمنحوتب الثالث، لقد مارس كهنة آمون منذ

بداية الأسرة الثامنة عشرة دوراً نشطاً في داخل الحكومة. ومن الممكن أن «ثورة» أمنحوتب الرابع الدينية كان لها أصول سياسية، دون أن يعنى ذلك أن أمنحوتب الرابع لم يكن صادقاً في موقفه الدينى، وبما كان صوفى الفزعة، ولكننا نقتقر إلى المستندات الموثوق بها للفصل فى هذا الشق من المشكلة - لقد قام بعمل ثورى حقيقى، سعى من خلاله إلى القضاء على ديانة آمون فأخلق معابده وشنت كهنته، وإذ لم يقنع بهذه التدابير الأولى، فقد هجر طيبة وأقام حكومته فى تل العمارنة فى مصر الوسطى (راجع الخريطة رقم (١)). وأخيراً غير اسمه أمنحوتب، المركب من إسم آمون (آمن - بالمصرية القديمة) إلى إخناتون، وأمر بمحو إسم آمون من جميع الدونات على العمائر، وبصفة خاصة من خراطيش من سبقوه من فرامين: أمنحوتب الأول والثانى والثالث. وتشهد الديانة الى فرضها على مصر على نزعة توحيدية واضحة، وإن لم يضطهد غير آمون من الآلهة، فالإله الأقل هو أتون - قرص الشمس، ولكن الجديد فى الأمر بالنسبة لمصر، أن عبادة الإله لم تستوجب وجود تماثيل له حيث تقام شعائر فى الهواء الطلق، وترفع مباشرة إلى الإله المتألق فى السماء. ورأى البعض أن وراء هذه الديانة تأثير أسيوى. بل ساد الظن أن الملك قد أخذ بها بعد تفكير وروية تشجيعاً لسياسة مصرية استعمارية فى آسيا، وهو أبعد ما يكون عن الحقيقة. «وفى الواقع كان أمنحوتب الرابع - من

ناحية - لا يبدو مهتماً كثيراً بالموقف الخارجى، كما لم تكن عبادة أتون من ناحية أخرى، من اختراعه هو شخصياً، إذ كانت عبادته معروفة، من أيام أسلافه، كما أن اسم أتون كمسمى لقرص الشمس هو أمر ثابت منذ متون الأهرام العتيقة وأخيراً كان للكهنة نورهم فى ثورة اخناتون الدينية، على ما يبدو، وبوجيز العبارة، فمن الراجح أن الجانب السياسى للثورة الأتونية، هو الذى حسم الأمور، وعلى كل حال، فقد كانت هذه الثورة قصيرة الأمد للغاية، وربما هُجرت عبادة أتون فى أيام إخناتون ذاته، ويبدو فى هذا الصدد أن تفرقتى «قد لبعت نوراً بارزاً فى الثورة التى قادها زوجها. ورغم أنها لم تساعد على إقامة العبادة الجديدة، إلا أنها ظلت على كل وفيه لها، لفترة أطول من زوجها شخصياً. ومن جراء ما فعله أمنحوتب الرابع فقد أصاب الوهن الأسرة الحاكمة، ومع وفاته استعاد كهنة آمون نفوذهم على الوجه الأكمل، وهكذا خسر خلفاء أمنحوتب الرابع هيبتهم ومكانتهم، وحبذ كهنة آمون، بعد أن ساورتهم الريبة، أن تؤسس أسرة ملكية جديدة، وربما اغتتم التحالف الحيشى فرحة القلاقل التى نجمت عن الثورة الدينية لتواصله ما حققه من نجاح، واستعاد ملك قادش سهل سوريا الشمالى، واستولى ملك عامورو - وهو حليف آخر للحيتيين على الموانئ الفينيقية التى تحتلها مصر، ولم يُقدم أمنحوتب الرابع على أى عمل مضاد، واكتفى بإرسال محقق إلى

لهيتقيا . وبيالغرابية، فقد نُبِتَ ملك عامورو في الممتلكات التي كان قد استولى عليها من مصر والتي سرعان ما شملت بيبيلوس أيضاً. وبإختصار، فقد اعترف أمنحوتب الرابع بالأمر الواقع، وتظاهر بالنظر إلى ملك عامورو على أنه تابع له. وثار اليبو بدورهم في فلسطين فاستولوا على مجدو وأورشليم، وبعثاً استنجد أهل البلاد بمصر فلم يمدهم أمنحوتب الرابع بأية مساعدات، وأخيراً استسلم الميثناني حليف مصر تحت وطأة ضربيات الحيثيين والأشوريين المتواليه والمتعاقبه. والآن وبعد أن أصبح للحيثيين اليد الطولى، فقد أرغموا ملك عامورو الذي كان يود أن يبقى مستقلاً في الوضع الذي ثبته فيه أمنحوتب الرابع - أرغموه على أن يوقع معهم ميثاق تحالف. نجد إذن أن نفوذ الحيثيين قد حل في كل مكان محل النفوذ المصري، حتى لم يبق شيء يذكر من إنجازات تحوتمس الثالث العظيمة.

توت عنخ آتون - توت عنخ آمون

يحيط بخلافة العرش بعد أمنحوتب الرابع الكثير من الغموض، فثباته شأن ملوك الأسرة الأوائل، لم يخلف من الولد سوى إناث، ويبدو أنه أشرك معه، قرب نهاية حياته، «سمنخ كارع» - زوج ابنته البكر، وأن كلاهما قد انضموا إلى عبادة آمون. أما الملكة «نفرتيتي» التي بقيت في العمارنة فقد ظلت وفيه لعبادة الإله آتون. أما أمنحوتب الرابع وسمنخ كارع» فقد وافتهما المنية في وقت واحد

تقريباً ، وألت السلطة إلى زوج الإبنة الثانية لأمنحوتب الرابع، وهو «توت عنخ أتون» الذي كان لا يزال صبيماً في مقتبل العمر، فأقام على مقربة من نفرتيتي في تل العمارنة، بعد انقضاء ثلاث سنوات، وعلى أثر حادث لا نعرف عنه شيئاً - هجر «توت عنخ أتون» تل العمارنة، ورحل إلى طيبة حيث اختار لنفسه إسم «توت عنخ أمون»، وإذ بقيت نفرتيتي بمفردها، فتأمرت على ما يرجح ضده بالتعاون مع الحيثيين، ولكن ودون جدوى، وتوفي توت عنخ أمون وهو في ريعان الشباب في الثامنة عشرة من عمره، وبعد حكم دام تسع سنوات، وسعت زوجته «عنخ إس إن أمون» إلى الزواج من أحد أمراء الحيثيين، ولكنه اشتهل وهو في طريقه إلى مصر.

منذ أواخر حكم أمنحوتب الرابع، وتصريف شئون سياسة مصر الخارجية لا يخضع للملك بل تولاهما قائد عسكري هو «حور محب» الذي سوف تهيمن شخصيته القوية على نهاية الأسرة الثامنة عشرة، ريثما يتولى السلطة بنفسه، وعمل «حور محب» منذ عهد أمنحوتب الرابع على استئناف الصراع في آسيا وجنوب فلسطين، حيث أخذ يدعم ما أمكن إنقاذه مما تبقى من مركز مصر.

كان «أي» من قدامى موظفي «أمنحوتب» الرابع واستمد حقه في العرش بزواجة من أرملة «توت عنخ أمون» - ابنة أمنحوتب

الرابع، وكان عهد «أى» قصير الأمد ويكتنفه التشويش، ولم يدم سوى أربع سنوات، وظل تصريف شئون السياسة الخارجية من اختصاص «حورمحب» الذي لم يكن نون شك بعيداً عن ارتقاء «أى» العرش.

«حورمحب» هو آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة التي لا يرتبط بها إلا بفضل ما ذكره مانتون والمؤرخون، فهو لا يدين في حقيقة أمره بشئ لهذه الأسرة، فلا ينتسب إليها سواء بقرابة الدم أو بالمصاهرة، وربما كانت زوجته تمت إلى أمنحوتب الرابع بصلة القرابة، ولكن لم يكن يحق لها المطالبة بتاج البلاد، وأن اختياره هو شخصياً ليصبح ملكاً إنما كان يوحى من آمون، وكان «حورمحب» ذاته ينحدر من عائلة من حكام الأقاليم وسرعان ما انخرط في سلك الجندية وتخصص فيها على ما يبدو، وكان قائد حاملي الأقواس في عهد «توت عنخ آمون»، وكم كنا نود أن نتعرف بشكل أفضل على هذه الشخصية الغريبة، فبعد أن كان مؤيداً للملكين «توت عنخ آمون» و«أى»، شهد عهد «حورمحب» ذاته رد فعل مناوئ لعائلة أمنحوتب الرابع، فاغتصب آثار توت عنخ آمون وكشط اسم سلفه من عليها ليستبد له باسمه. وأخيراً فقد حدد بداية حكمه بوفاة أمنحوتب الثالث، وكان أمنحوتب الرابع وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون وأى لم يوجئوا قط، وإذا صح ما ورد في نص مرسوم صادر في عهده، فمن الراجح أنه أعاد للسلطة

المركزية وضعها وانصرف إلى نزع مفاسد الموظفين، ومهما يكن من أمر فلا يبدو أنه وأصل الحملات العسكرية بعد أن تولى الحكم، وهورمحب هو المؤسس الحقيقي للأسرة التاسعة عشرة التي اختار لها - على ما يبدو - أول ملوكها.

الأسرة التاسعة عشرة وتجديد الهيمنة المصرية

إن الجيش كما نظمة كبار الفاتحين من الأسرة الثامنة عشرة، بات يشكل من الآن فصاعداً قوة داخل الدولة المصرية، فلم يكن من المستغرب إذن أن نراه يقوم بدوره في الحياة السياسية، فقد استطاع هورمحب أن يفتصب السلطة بفضل دوره العسكري السابق، فلما أصبح طاعناً في السن، دون أن يرزق أطفالاً، على ما يحتمل، فكر في قائد عسكري آخر، ليخلفه على العرش.

رمسيس الأول (١٣١٤ - ١٣١٢)

بالنظر إلى أن «هورمحب» كان قد اختاره بنفسه، فقد تبوأ رمسيس الأول سدة الحكم دون عناء، وكانت تانيس - في الدلتا - (سان الحجر، حالياً) هي موطنه الأصلي، كان جندياً محترفاً، شأنه شأن والده من قبله، وسوف يحمل نفس الألقاب العسكرية التي تلقب بها هورمحب ذاته، ولا نعلم ما إذا كان مرتبطاً بصلة القرابة مع آخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة.

كان رمسيس الأول طاعناً في السن عندما اعتلى العرش، لذا فقد اشرك على الفور ابنه سيتي الأول في العرش ليؤكد حق ذريته

فى السلطة الملكية. وشهد عهد رمسيس الأول الشروع فى تشييد
يهو الأساطين العظيم بالكرك فى طيبة بالإضافة إلى حملة إلى
السودان بقيادة سبتى، وهو بلاشك الفرعون الذى سيدعى سبتى
الأول.

سبتى الأول ١٢١٢ - ١٢٩٨

مثل أبيه وفى حياة «حورمحب» ذاته، كان سبتى قد أصبح
قائد حملة الأقواس ووزيراً، وحيث أنه شارك أباه العرش فقد تسلم
السلطة بشكل عادى، ومن علامات هذه البارزة العودة إلى سياسة
الفتوحات فى الشرق، ويفضل سبتى الأول سوف تسترد مصر
الشموخ والعظمة، صحيح أن رقعة الإمبراطورية المصرية لم تصل
أبداً إلى ماوصلت إليه فى أيام تحوتمس الثالث، إلا أنها استعادت
نفوذها المؤثر فى آسيا.

اغتنم بنو آسيا فرصة تغيير الفرعون ليتمردوا وايستلوا على
المخافر المصرية القائمة على امتداد الطريق البرى من مصر إلى
فلسطين، وكان سبتى قاسياً فى قمعه للعصيان، فاستعاد المخافر
وتوغل داخل فلسطين. وبتشجيع من الحيثيين حاول أهل البلاد أن
يتصدوا للمصريين، ولكن سبتى استطاع أن يهزم المتحالفين قبل
أن يجدوا متسعاً من الوقت لالتقاء قواتهم، وبعد أن تسيد على
فلسطين تقدم فى سوريا حتى وصل إلى مستوى مدينة صور،
وهكذا استردت مصر مكانتها كقوة آسيوية.

وللأسف فإن الحدود الشرقية، جهة ليبيا، والتي ظلت هادئة منذ الدولة القديمة، كشفت فجأة عن خطر جسيم، إذ كانت القبائل الآرية قد انتشرت في جميع أرجاء أوروبا الجنوبية، ثم عبرت البحر وحمّلت الرحال في ليبيا، وبدأت على الفور محاولاتها للتسلل إلى مصر، تمكن سيتي الأول أن يردعهم بقدر كبير من السهولة، ولكن ظل الخطر قائماً، وسوف يثير لخلفائه مشاكل خطيرة... وبعد أن هدأت الأوضاع في ليبيا، عاد سيتي مرة أخرى إلى آسيا ليواصل حملته، ومعلوماتنا عن هذه الحملة ضحلة للأسف، فنعرف أن سيتي قد استطاع أن يوقع الهزيمة بالحيثيين قرب قادش ولكنها لم تكن على ما يظن معركة حاسمة، نظراً إلى أنه لم يتوصل إلى فتح سوريا من جديد.

رمسيس الثاني ١٢٩٨ - ١٢٣٥

خلف والده بشكل طبيعي، وإذا أخذنا بعدد الآثار التي تحمل اسمه لاعتبرناه أعظم البناة المصريين، ولكنه في حقيقة الأمر، غالباً ما كان يفتصب أعمال الآخرين، فلم يتردد قط في العمل على كشط أسماء أسلافه من على سطوح العماثر القديمة ليضع أسماءه مكانها، وإذا أضفنا ما اغتصبه من آثار إلى ماشيده شخصياً، وهي مبان يصعب غض النظر عنها، لأدركنا لماذا خُلف ذكرى حية في تاريخ العالم، حتى تمّ أحياناً الخلط بينه وبين الشخصية الأسطورية التي عرفها الإغريق تحت اسم «سيزوستريس» Sésostris .

وتسج رمسيس الثانى على منوال والده، فقاد حملة إلى السودان، ومن الراجح أيضا (وإن لم يكن مؤكداً) أنه شن هجوماً على الهند وأوروبيين القاطنين في الغرب، وفي عام ١٢٩٤ عبر إلى فلسطين وسار حتى بلغ مستوى مدينة بيلوس، وتصدى الحيثيون للجيش المصرى بتحالف ضم عشرين شعباً، ولكن لم يتمكن المصريون في هذه المرة من أن يهزموا كلا من المتحالفين على انفراد، فاصطدموا بجيشهم الموحد، ووقعت الواقعة أمام مدينة قادش، إن معركة قادش معروفة معرفة جيدة بفضل أناشيد الثناء والمديح التي نظمت بأمر من الملك لتشييد بمسلكه الخاص، وأمكنا أن نستخلص منها خريطة بتحركات طلائع الجيش وقواته الضاربة الخ.. وكانت المعركة في حقيقة الأمر، قاب قوسين من كارثة لا سابق لها بالنسبة للجيش المصرى، وجل ما استطاع رمسيس أن يفعله هو إعادة تجميع قواته، وربما أمكنه وقف تقدم العدو، ولم ينجح في الاستيلاء على قادش أو تدمير جيش الحيثيين الذى واصل حملته عليه، وبمجرد أن عاد إلى مصر، دبر ضده تمرداً جديداً في فلسطين، فعاد رمسيس أدراجة إلى فلسطين وفرض السلام على كنعان (فلسطين) كما نجح في انتزاع مدينة تونيب من الحيثيين (راجع الخريطة رقم ٢).

عند هذا الحد، تطورت الأوضاع الخارجية فجأة، فوفد من آسيا لص ثالث، مستغلاً الصراع المصرى الحيثى. كان ملك آشور

قد استولى على الجانب الأكبر من دولة الميتاني القديمة، ثم استقر عند نهر الفرات، حيث أخذ يهدد في آن واحد الممتلكات المصرية وإمبراطورية الحيثيين، وإذا أدرك المصريون والحيثيون الخطر، اتفقوا على الفور، وأبرموا معاهدة عام ١٢٧٨ ق.م، فكانت حلفاً حقيقياً للتعاون المتبادل. وتعهد الطرفان بموجبه أن يضعوا حداً للحروب الدائرة بينهما وأن يساندا كل منهما الآخر عند وقوع هجوم من جانب قوة ثالثة. وأخيراً اتفقا على تسليم اللاجئين السياسيين التابعين للطرف الآخر. ويدعم الوحدة الجديدة، تزوج رمسيس الثاني من أميرة حيثية. وعلى كل حال، فسرعان ما فقدت المعاهدة أهميتها بالنسبة لمصر، بالنظر إلى زحف الموجة الثانية من الغزو الهند وأوروبي في آسيا الصغرى، فكان الحيثيون أول المتضررين منها. لقد استطاعوا وقف الزحف إلى حين، ولكن سرعان ما جرى اكتساحهم ليصبح من المستحيل عليهم تقديم أي عون لمصر.

مرنبتاح ١٢٣٥ - ١٢٢٤

يمثل عهد مرنبتاح بداية انحطاط مصر، لقد كان حكم رمسيس الثاني طويلاً بشكل ملحوظ، وعندما وصل مرنبتاح - ابنه الثلاثون - إلى سدة الحكم كان هو شخصياً في سن متقدمة إلى حد ما، وظل في استطاعته أن يحافظ على هيبة مصر ومكانتها، ولكن سوف يتقوض كل شيء من بعده، وكانت حملة ليبيا، دون جدال، من أبرز أحداث عهده، فقد لاحظنا توغل الهند وأوروبيين في ليبيا في عهد سيتي الأول. فبعد أن تمكن زعيم قبلي

من توحيد العشائر الآرية التي حطت رحالها على أرضها، نجح في إخضاع الليبيين سكان البلاد الأصليين، ثم اتجه صوب مصر، توغل الجيش الهند وأوروبي في وادي النيل شمال غرب منف، وكان على مرنبتاح أن يخوض القتال على أرض مصرية وانتصر، وولى الجيش الليبي أدباره في حالة من الفوضى. وانزاح الخطر الليبي مؤقتاً. وحسبما جاء في وثيقة مصرية، يظهر فيها إسم إسرائيل لأول مرة في التاريخ، يبدو أن مرنبتاح قاد حملة إلى آسيا. غير أنه لم تصلنا أية معلومات عن هذه الحملة التي لازالت محلّ جدال.

ربما كنا على قدر من التعسف عندما اعتبرنا أن نهاية عهد مرنبتاح أي منتصف الأسرة التاسعة عشرة، هي نهاية لتاريخ مصر الكلاسيكية. وفي الحقيقة، فبعد هذا الفرعون، سوف يتوارى بالتدريج كل ما صاغ عظمة مصر التي لا نظير لها. وبداية فقدت مصر نهائياً ممتلكاتها الآسيوية، ثم إن الوحدة، التي كانت العماد الوحيد لإمبراطورية مصر الإفريقية، سوف تزول على نحو ما حدث خلال عصرى الانتقال الأول والثاني. وسوف تظهر في الوجهين القبلي والبحري ممالك تعادى بعضها البعض، ولكن ظهور الزعماء صانعي السلام قد أصبح له هذه المرة طابعاً مؤقتاً. وسوف تتحول مصر من فوضى إلى فوضى لتسقط فريسة الإمبراطوريات المجاورة، آشور في البداية، ثم الفرس، فالإغريق في نهاية المطاف. والآن فلنتناول تاريخ هذا الانحطاط الطويل الممتد.

الفصل الثالث

عصر الانحطاط

أدى وصول الهند وأوروبيين بأعداد غفيرة إلى ليبيا وفي البحر المتوسط وفي آسيا، عند نهاية الألف الثاني (حوالي ١٢٠٠ ق.م)، إلى زعزعة توازن الدول، إن مصر من ناحية، وما بين النهرين من ناحية أخرى، كانتا - حتى وصول الهند وأوروبيين - تشكلان مركزين حضاريين شامخين ومستقلين في الواقع، ويبعد كل منهما عن الآخر بما يكفي لتجنب أية احتكاكات، ولكن منذ بداية الألف الثاني، كانت موجة الهجرات الأولى قد غيرت بالفعل من هذا الوضع الذي ظل قائما منذ الألف الخامس، إن تأسيس امبراطوريتين كبيرتين جديدتين في الشرق الأدنى: في الأناضول (الحيثيين) وفي أعالي الفرات (الأشوريين) قد أجبرتا مصر على الاحتماء وراء تحصينات أحادية امتدت إلى فلسطين وسوريا، ولكن جاء اليوم الذي اتضح فيه أن حتى امتلاك هذه التحصينات أصبح غير كاف لحماية وادي النيل. ولأول مرة في تاريخها، يقع هجوم بحري على مصر وعلى السواحل المصرية بالتحديد، ومما لاشك فيه أن مصر قد نجحت في تحطيم الأسطول المهاجم، فحصلت بذلك على مهلة لعدة سنوات تلتقط خلالها الأنفاس، بيد أنه لم يعد في إمكانها أن تغير التوزيع الجديد للقوى، فبعد أن

ظل البحر المتوسط حتى الآن منطقة لا حياة فيها، اضحى بنوره محور عبور هجرات وتحول إلى مركز حضارى لتنتهى عزلة مصر النسبية. لقد كان فى وسع مصر حتى هذه اللحظة أن تتطوى على ذاتها لتظل إفريقية ليس إلا، ولكن منذ الآن، وبمرور السنين، تناقصت قدرتها على ذلك. فمن خلال الدلتا، أصبحت مصر متوسطة، شاعت ذلك أم أبت، كان من المنتظر نتيجة تغيير واقع الحال فى مصر أن تتطور البلاد داخلياً، فنشهد تحرك مركز ثقل مصر السياسى كنتيجة لتحرك الحضارات نحو البحر المتوسط. ولكن كانت استطلاة مصر أكثر مما ينبغى، بحيث لا تستطيع أن تحرك مركزها الإدارى دون أن تعرض نفسها للخطر. وإنطلاقاً مما سبق وأكدها، فإن إقامة عاصمة البلاد فى الدلتا، يكاد يقابله بالضرورة حدوث تمرد فى الجنوب، ولا ريب أن العناصر التى قادت مصر إلى الانحطاط، قد تمخضت عن حتمية اختيار أحد هذين الصلين، فحتى يمكن لمصر أن تراقب عالم المتوسط وأن تحتسى منه، كان عليها أن تقيم مركز البلاد فى الوجه البحرى وتظل تتحكم فى جميع مواردها البشرية، ولكن إذا انتقل المركز الإدارى إلى الشمال أكثر مما ينبغى، استقل الوجه القبلى والنوبة إلى هذا الحد أو ذاك ليفقد النظام الملكى الفرعونى جل قوته، هذا السبب المتأصل المقوض للتوازن، والذي يصعب الإفلات منه، سيزداد خطورة بفعل حدثين ثانويين، كانت طيبة ومعها كهنة آمون

يتمتعون بمكانه بلغت حداً من السمو في نظر المصريين حتى بقيت بالضرورة مركز جذب بالنسبة للشمال، الأمر الذي أعاق إنشاء عاصمة إدارية في الدلتا. وأخيراً، فإن اقتتار مصر إلى زعماء مرموقين، يكون في وسعهم يفضل ما لهم من مكانة شخصية ومهارة أن يحافظوا، ولو في الظاهر، على وحدة هذا الجسد الكبير الذي فقد محور توازنه، قد عجل من انهيار مصر، لقد أصبحت بلاد الزعماء الذين حملوا اسم امنصحات وسنوسرت مجرد لقمة سائغة لكل طامع، لقد وجدت مصر نفسها حسب موقعها الجغرافي عند ملتقى الطرق، فقدر لها أن تهاجم على الدوام، ولكن لم تتضح محاذير هذا الموقع إلا بعد إعمار عالم المتوسط وتحضره ليصبح مركز إشعاع. لقد تحرك مركز حضارات العالم القديم في اتجاه الشمال وتبين أن هذا التحرك كان نكبة على مصر، فلكل مرة في التاريخ نشاهد مثل هذا التحرك ولن يكون الأخير. وإذا اكتفينا بالظواهر التاريخية التي مرت بالحضارة الغربية فنذكر منها كبرى فتوحات القرون الميلادية الأولى واكتشاف العالم الجديد وإعماره، وجميعها نماذج لهذه التحركات التي كانت تقوض في كل مرة التوازن القديم للحضارات، فتتقود بعضها إلى الانحطاط وتدفع غيرها إلى مركز الصدارة.

١ - نهاية الأسرة التاسعة عشرة (١٢٢٤ - ١٢٠٠

ق.م)

بعد نجاح مرنبتاح في احتواء الليبيين الهنود وأوروبيين في الغرب، كان من المهم بمكان أن تنهض مصر سياسة عسكرية نشطة.

فالعدو لم يكن قد أبيض بالفعل عن بكرته، بل تفرق فحسب.
والأسف كان مرنيتاح آخر أسرته العظماء. كان خليفته «أمون
مس» مفتصباً للعرش، ومنذ عهده عمّت القلاقل الداخلية، وخُلع
«أمون مس» عن العرش من جانب المدعو «مرنيتاح مس يتاح»
الذى أطاح به «سيتى» الثانى، بصفتها الملك الشرعى دون شك
واستطاع ابن «سيتى» الثانى وهو «رمسيس سى يتاح» أن
يخلف أباه، ولكننا لا نعرف شيئاً عن حكمه، وظلت الفوضى تتفاقم
بعد وفاته، وأصبح رؤساء المقاطعات مستقلين من الناحية العملية،
بل لم يكن هناك على ما يبدو ملك لتصريف أمور الحكومة المركزية،
بل وتجح سورى يدعى «يارسو» من فرض نفسه ملكاً على مصر،
الأمر الذى يكشف عن مدى اضطراب أحوال امبراطورية
الفرعون، وفى الخارج، شرع الهنود وأوروبيون يزحفون صوب
الجنوب والغرب، بينما استغل أقرانهم فى ليبيا انتشار الفوضى
فى مصر ليعيدوا تنظيم صفوفهم.

٢ - الأسرة العشرون (١٢٠٠ - ١٠٨٥ ق . م)

تتدد النصوص المصرية بزندقة وطفيان الغاصب السورى، لقد
نجح المصرى «ست نخت» فى خلع «يارسو» عن العرش، سواء
بالاعتماد على المقاومة الشعبية أو بتشجيع من كهنة أمون، وأسس
الأسرة العشرين، وبالرغم مما أصاب البلاد من وهن كنتيجة لطول
عصر الفوضى التى عاشتها مصر، فقد نجح فى أن يكون له

بعض الهيمنة، ولكن علينا ألا نخدع أنفسنا كثيراً، إنها الصحوة الأخيرة ليس إلا، فالانحطاط أت لا محالة، كان حكم «ست نخت» (١٢٠٠ - ١١٩٨) مؤسس الأسرة قصيراً جداً، وكان - وهو على قيد الحياة - قد أشرك ابنه في الحكم، ومن ثم استطاع هذا الإبن وهو رمسيس الثالث - أن يخلف أباه نون مشاكلاً، ليصبح عهده آخر أعظم عهود مصر، وعلى الصعيد الداخلى يبدو أن رمسيس الثالث قد أصلح الإدارة بل ومجمل نظام مصر الاجتماعى، وللأسف، فإننا مازلنا نعرف هذا الإصلاح معرفة سيئة، وكم كنا نود أن تتوفر لنا المعلومات حول توزيع السكان على مختلف الطبقات المترتبة التى نشأت فى ذلك العهد كما تكشف عنه بعض البرديات، ومن ناحية أخرى، فإذا حكمنا على ذلك استناداً إلى نموذج عصر الامبراطورية الرومانية المتأخر (٢٣٥ - ٤٧٦م) الذى شهد إصلاحات مماثلة، فإن بلورة هذه الوظائف الاجتماعية دليل انحطاط أكثر منها إعادة تنظيم مثمرة، ومهما يكن فإن رمسيس الثالث قد استطاع على الأقل أن يدعم النظم العسكرية وهو ما كانت مصر أحوج ما تكون إليه، وبالفعل فقد اختفى الحيثيون بعد أن أبادتهم «شعوب البحر» أى القبائل الهند وأوروبية الوافدة من أوروبا التى وصلت فى هذا الوقت عند حدود فلسطين وأخذت تزحف على مصر، وفى ليبيا، أخذت هندوأوروبيو الغرب يهددون من جديد وادى النيل بعد أن أعادوا

تنظيم صفوفهم، شن رمسيس الثالث حملته الأولى ونجح في وقف القبائل الآرية الزاحفة من ليبيا بعد أن استطاعت التوغل داخل مصر ذاتها، ومن هنا أخذت تهدد مدينة منف، وبعد أن حقق هذا النجاح الأول أوريا في الوقت ذاته (إذ مازلنا لا نلم جيداً بالتتابع الزمني لهذه الحملات) اضطر فرعون أن يتصدى لموجة أخرى من الغزوات الهندوأوروبية القادمة في هذه المرة من الشرق والشمال والتي أخذت تهدد مصر براً وبحراً في آن واحد، ومعلوماتنا عن الحملة البرية شحيحة ويبدو أن الجيش المصري قد توصل إلى احتواء الهندوأوروبيين عند الحدود الفلسطينية السورية، أي على مسافة كافية بعيداً عن مصر، أما بحراً فتسرد علينا نقوش معبد مدينة هابو (بطيبة) وقائع انتصار مصر الذي كان حاسماً على ما يظن، وعلى كل حال فقد تم تدمير أسطول الغزو «لشعوب البحر» أمام سواحل الدلتا، أو في الدلتا، ودون رجعة.

إن أول انتصار حققه رمسيس الثالث على الهندوأوروبيين في ليبيا، كان على ما يبدو غير كافٍ بما إن مرّت ست سنوات على الغزوة الأولى، حتى التأم شمل القبائل من جديد تحت إمرة زعيم أوحد يدعى «كاپر» الذي شرع يخضع باقي السكان الليبيين المحليين، وبفضله فرض الهندوأوروبيون يدهم الطولى على ليبيا، وبعد أن أكمل هذه العملية التمهيدية، دفع «كاپر» بقبائله لتغزو

مصر، فاصططدت هذه المرة أيضاً مع الجيش المصرى عند مشارف منف. وفي هذه المرة انتصرت مصر نصراً مبيناً؛ فوقع الملك «كاير» وابنه فى الأسر. وبعد أن تمكنت الفوضى من القبائل الهندوأوروبية، لن تعود أبداً إلى غزو مصر بالقوة، ولكن لم تنفك مصر تشدهم إليها. ومنذ الآن، فبدلاً من أن تدخل وادى النيل كعزاة فسوف تتسلل إليه بالطرق السلمية، وفى الغالب كمرتزقة، بناء على طلب من زعماء الأسرات المحلية فى الأقاليم أو الفراعنة لسدّ النقص فى الرجال، وهكذا سوف ينجحون فى تكوين دولة داخل الدولة ويتوصلون إلى الاستيلاء على السلطة الملكية. ومن ذرية هؤلاء المحاربين المرتزقة سوف يبرز واحد منهم ذات يوم ليتربع على عرش مصر.

وبعد أن أنزل رمسيس الثالث الهزيمة «بشعوب البحر» حاول أن يعود إلى سياسة مصر التقليدية فى آسيا بل إنه نجح فى التوغل داخل سوريا، ولكنه، الأمر كان مجرد إغارة لم يكتب لها النجاح. أما الساحل الفلسطينى ذاته الذى تحكمت فيه القوات المصرية لأمد طويلة، فقد احتله الآن البلستيون وهم قبيلة هندوأوروبية. وأصبحت مصر لا تلعب قط أى دور فى المشرق وإن تلعبه أبداً.

وما إن توفى رمسيس الثالث - بل وربما وهو على قيد الحياة، أطيقت الفوضى على مصر من جديد، فقد حيكّت مؤامرة ضد الملك العجوز، ومن الراجح أن المتآمرين قد حققوا على الأقل

جانباً من أهدافهم. وبالفعل فقد تولى خليفة رمسيس الثالث تقديمهم للمحاكمة وهو ما يعنى أن هذا الأخير كان قد واغته المنية. ولا نعرف إن كان قد اغتيل ثم تولى ابنه ردع المؤامرة قبل أن يجد المتآمرون متسعاً من الوقت للاستيلاء على السلطة، أم أنه مات مية طبيعية فى نفس اللحظة التى تم فيها اكتشاف المؤامرة، ومن ثم تولى ابنه معاقبة المذنبين بعد أن ألقى القبض عليهم وهو على قيد الحياة، ومهما يكن من أمر، فقد تدهورت الأوضاع فى اتجاه مزيد من الانحطاط، ولا نعرف الكثير عن الملوك الثمانية الذين أعقبوا رمسيس الثالث (لقبوا جميعهم باسم رمسيس، وهم رمسيس الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر). اللهم إلا أن عهدهم قد عانت من القلاقل الداخلية والمجاعات، ومن علامات الساعة، أن دفنات الملوك ذاتها لم تسلم من عبث العابثين. جاء اللصوص ينهبون التوابيت الملكية واستولوا على الحلى، بينما وقف الملوك الجالسون على عرش البلاد عاجزين لا يملكون من وسيلة لحماية رفات أسلافهم سوى أن ينقلوها من مقابرهم لدفنها سرأ فى خبايا جماعية، ولو تذكرنا مكانة الملك فى أعين المصريين فى ظل الدولة القديمة والنولة الوسطى بل وفى ظل الدولة الحديثة، عندما كان إليها يقدر ما كان ملكاً، لأدركنا مقدار ما فقدته الملكية من هيبة، وبناء عليه من قوة، ويظهر ضعف الملكية فى حركات التمرد فى مصر الوسطى على

وجه الخصوص، ونظرا لوجود الليبيين في هذه المنطقة بأعداد
كبيرة فمن غير المستبعد أنهم ظلوا بمنأى عنها، كما يظهر أخيراً
في تزايد قوة كهنة آمون في طيبة. إن مانعرقه عن دور هؤلاء
الكهنة هو من باب التخمين أكثر منه معرفة يقينية، وفي صحوة
مياغته من صحوات العزيمة خلع رمسيس الحادى عشر كبير كهنة
آمون وأحجم لفترة من الوقت عن أن يعين من يخلفه، ولكن سرعان
ما عين رمسيس الحادى عشر «حريحور» كبيراً لكهنة آمون، سواء
أدرك أنه لا يستطيع أن يقود الحكم بمفرده أو نتيجة لما مارسه
بقية الكهنة من ضغوط قوية عليه أو أخيراً لأنه أراد، بدافع من قلة
الحنكة، أن يحاسب أحد المقربين إليه، ومن الراجح أن «حريحور»
كان من العسكريين، فجاء هذا التعيين غير الموفق إيداناً بنهاية
الأسرة، إذ نلاحظ أن «حريحور» قد انتحل شيئاً فشيئاً مختلف
الصفات الملكية، ومما لا ريب فيه، أنه قد بدى في بداية الأمر
بمظهر الموظف المخلص، وبفضل إنعامات الملك عليه، وبعد أن
شغل منصب كبير كهنة آمون، أضاف إلى هذا المنصب الرفيع لقب
نائب الملك في كوش الذى ساعده على مدّ نفوذه إلى السودان، ثم
حمل لقب وزير الجنوب الذى أهله لحكم الوجه القبلى على وجه
التحديد، وإن لم يستطع حريحور أن يصبح سيد مصر قاطبة، إلا
أنه غداً سيد جنوب البلاد على الأقل، ومن المفترض على الأرجح
أنه اعتمد في ذلك على مساندة كهنته، واختفى رمسيس الحادى

عشر دون أن تعرف تاريخ وفاته، وكانت مصر عند وفاته قد عادت وانقسمت عملياً إلى شطرين، ففي الشمال كان «سمندس» وزير الشمال المطلق السلطات، ومن الراجح أنه اكتسب حقوقاً على عرش البلاد عن طريق زوجته، أما في الجنوب، فنرى أن «حريحور» وهو الوزير السابق للجنوب، كان قد انتحل الألقاب الملكية. وعلى كل حال، فإن السلطتان القائمتان في الشمال والجنوب لم تناصبا بعضهما البعض العداء، بل يبدو أن حريحور قد اعترف بتبعيته لسمندس ولو نظرياً على كل حال، لأنه باعترافه ملك الوجه القبلي، وبالأخص بصفته السيد الحقيقي لكهنة آمون، واهتمامه بتعيين ابنه «بي عنخي» رئيساً عليها، قد أصبح السيد المطلق لمنطقة طيبة وجنوب البلاد.

٣ - الأسرة الحادية والعشرون (١٠٨٥ - ٩٥٠ ق . م)
حينما تسلم «حريحور» السلطة في الجنوب، كان آنذاك طاعناً في السن، ولو كان في نيته أن يضم الشمال إلى ملكه فإنه لم يجد أمامه متسعاً من الوقت لتنفيذ مشاريعه، وعند وفاته، كانت مصر موزعة بين سلطة فعلية في الوجه القبلي، على رأسها «بي عنخي» بن حريحور، وبين ملك في الشمال، هو يلا ريب، الملك الشرعي، ويدعى «سمندس» وتضافرت الظروف ليصبح «سمندس» مؤسس الأسرة الحادية والعشرين التي اتخذت من تانيس (صان الحجر - حالياً) في شرق الدلتا، عاصمة لها، وفي حقيقة الأمر،

فقد توفي سمنديس - شأنه شأن حريصور - دون أن يغير شيئاً في الوضع القائم في مصر. وأورث سلطنة لابنه «بسوسينس» الأول الذي لم يرزق أبناء من الذكور. أما ابنته «ماعت كارع» التي تملك حق وراثة العرش، حسب العادات المصرية، فقد زوجها من ابن «پى عنخى» الذى كان لا يزال كبير كهنة أمون، ويستحوذ بالتالى على السلطة فى الوجه القبلى، ومن ثم ورث ابن پى عنخى السلطة فى الجنوب عن طريق أبيه والسلطة الملكية فى الشمال عن طريق زوجته، ولما تسلم السلطة تلقب باسم پى نجم» الأول، وبدا وكأن وحدة مصر قد صارت من جديد أمراً محققاً، بيد أن عوامل التجزئة كانت أقوى بكثير من أن تقاوم بمثل هذه السهولة. حقاً لقد حاول «پى نجم» الأول، وإِ ظل يقيم بمقره فى الشمال، أن يحافظ على سيطرته على الجنوب فأُسند إلى أبنائه منصب كبير كهنة أمون. ولكن يبدو أن التمرد قد انفجر فى طيبة فى أعقاب وفاة ابنه الأكبر، إذ عين «پى نجم» فى الحال ابنه الثانى على رأس كهنة طيبة، وكان يُدعى «من خپر رع»، واستولى هذا الأخير على السلطة لحسابه الخاص، ففضى بذلك قضاءً مبرماً على كل مخططات والده. وسرعان ما اتخذ «من خپر رع» كبير كهنة أمون لنفسه لقب ملك، وهكذا ورغم كل ما بذله «پى نجم» من جهد، انقسمت مصر من جديد إلى شطرين على حساب البلاد بأسرها، نظراً لأن كبير كهنة أمون أصبح يفتقر إلى القوة المناسبة التى كانت تحت تصرفه فى ظل الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، فقد

تضاطت ثروتهم لانحسار موارد الجزية الأجنبية التي كانت تغذى مخازنهم في الماضي من جراء الحروب المتواصلة التي خاضها فراعنة مصر العظام، فاضطروا إلى الإعتماد على ما تغلّه أراضى المعابد من دخل، ومن الراجح أن هذا الدخل قد استخدم في جانبه الأعظم لسدّ احتياجات الكهنة أنفسهم.

وبعد وفاة «بى نجم» ظلت الأسرة منقسمة من الناحية الفعلية، ففي تانيس وفي الشمال، كان في سدة الحكم «أمون إم أوه» أولاً، ثم خلفاؤه «سى أمون» و «يسوسينس» الثانى، في حين خلف أبناء «من خير رع» أباهم في طيبة عند وفاته وحملوا نفس الأسماء التي حملها الملوك الذين حكموا في الشمال، فنعرف في الجنوب من يدعى بسوسينس» الذي كان حكمه قصيراً جداً، وآخر يدعى بى نجم» وكان معاصراً لـ «سى أمون»، وما نعرفه عن هذه الفترة قليل جداً، وكم كنا نود أن نوضح بصفة خاصة العلاقات التي كانت تربط الجنوب بالشمال، ولاشك أن الاكتشافات التي تمت على يدى بيير مونتيه P.Montet عام ١٩٤٠ ق . م فى تانيس، سوف تساعد على إلقاء الكثير من الضوء على هذه المشاكل، وتسيطر على نهاية الأسرة الحادية والعشرين حقيقة أنقسام مصر الكامن في الواقع كإمكانية لا يمكن ملاحظتها على الصعيد الرسمى، إنه مجرد واقع حال أفرزته الظروف، إن ملوك تانيس هم حكام مصر الشرعيون، وخلفاء «من خير رع» في طيبة

- على عكس ما فعل أبوهم - لن يحملوا الألقاب الملكية، ولم تكن
امكانيته انقسام الشمال والجنوب الكامنة في الواقع هي الصدع
الوحيد في البنيان السياسي، ففي ميراكليوپوليس (إهناسيا -
حاليا) في مصر الوسطى، استولت عائلة ذات أصول ليبية على
السلطة المحلية. وازدادت أهميتها بالتدريج، وسوف تقوم هذه
العائلة بتأسيس الأسرة الثانية والعشرين بعد أن تمكنت من إزاحة
ملوك تانيس.

٤ - الأسرة الثانية والعشرون - (٩٥٠ - ٧٣٠ ق . م)

تتحد هذه الأسرة من أصول ليبية وتشكل ما يشبه ديكتاتورية
عسكرية، فقد بات المرتزقة الليبيون - الماشواش - يشكلون
وحدهم الجيش، بعد أن تقلص فيه باطراد العنصر المصري
المحض وتمتع زعمائهم بسلطات ازداد قدرها كلما ازدادت البلاد
ضعفاً من جراء الانقسامات، وصاروا يمثلون القوى المسلحة
فاستغلوا الوضع للاستيلاء على السلطة العليا. كان من المنتظر
في ظل حكومتهم أن تعود إلى البلاد وحدتها السياسية، كما هو
الحال بوجه عام عندما تستولى أقلية عسكرية على السلطة، ولكن
لم يحدث شيء من هذا القبيل، فكانت الأسرة الثانية والعشرين
منقسمة وضعيفة شأنها في ذلك شأن الأسرة الحادية والعشرين
ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، بادئ ذي بدء، كان المرتزقة الليبيون
قد استقروا في مصر، منذ الأسرة العشرين؛ وقد تمصروا على مر

القرن، وفقدوا وحدة سماتهم العرقية التي كانت تشكل جانباً من قوتهم بتكرار زواجهم من المصريات. ثم بالنظر إلى أنهم كانوا أقل تطوراً من المصريين، فقد تبوأ حضارة سادتهم وتخلوا عن تقاليدهم الخاصة، التي كان في إمكانها أن تميّزهم عن المصريين وتعزلهم عنهم، إذا صحّ القول، فتمكنهم من السيطرة عليهم بسهولة. إنهم مصريون من أصل أجنبي، وليسوا أجنبي، وأخيراً كانت جنود اختلال التوازن بين الجنوب والشمال تمتد إلى أعماق سحيقة بحيث لا تستطيع سلطة مفتتحة، كما هو الحال بالنسبة للأسرة الثانية والعشرين - أن تعالج الأمر.

إن عائلة آل «شاشانق» التي ينتسب إليها ملوك هذه الأسرة الملكية هم خير مثال على عملية الدمج التي جرت لليبيين في مصر. لقد استقروا في هيراكليوبوليس (إمناسيا - حالياً) - وهي النموذج الأمثل لمقاطعة التخوم الليبية، ويبدو أن آل «شاشانق» - والإسم غير مصري على كل حال - كانوا ينحدرون، على ما يبدو، من أصول ليبية صرفة. ومن الملاحظ أنهم أصبحوا مصريين حتى قبل أن يستولوا على السلطة في هيراكليوبوليس، وبعد أن كانوا في الماضي زعماء عسكريين فحسب، أصبحوا كهنة الإله المحلي «حريشف»، وقد أراوا بصفتهم هذه أن يدفنوا في أبيدوس شأنهم شأن المصريين. وسرعان ما أشرق إشعاع العائلة وضرب في الأفاق حتى وصل إلى بوباستس (تل بسطا - حالياً) في شرق الدلتا، وعند وفاة «بوسينس» الثاني، حمل «شاشانق» الأول

الألقاب الملكية وليصبح الشرعية على أسرته زوج ابنة «أوسركون» من ابنة «بوسينس».

ومن الراجح من ناحية أخرى أن الدكتاتوريات العسكرية قد أثارت القلاقل في البلاد، ومع ذلك فإننا لم نتوصل إلى معرفة إلى أي حدّ امتدّ التمرد الذي اتخذ على ما يبدو من منطقة طيبة على وجه التحديد نقطة ارتكاز ومن غير المستبعد أنه قد حدث خلال هذه الفترة، أن اختار جانب من الكهنة أن ينفي نفسه إلى السودان نقياً طوعياً، وإن كنا نفتقر إلى دليل قاطع.

كان لا مفر من أن يشد الشمال الملوك الليبيين شداً، بعد أن أصبح الآن مركز ثقل مصر الحقيقي، فهجروا منطقة هيراكليوبوليس، ليستقروا على ما يبدو في الدلتا. ومن هنا شن شاشانق الأول حملة على فلسطين واستولى على اورشليم وسلب معبدها ونهبه. ومن ثم أعاد إلى مصر بعض هيبتها في أسياخ ولكنها كانت حملة تفنقر إلى نتائج حقيقية. وبالطبع لم يصل الأمر إلى غزو حقيقي لفلسطين، وكانت النتيجة العملية الوحيدة لهذه الحملة هي إمداد المعابد المصرية بكم هائل من المنانم.

إن خلافة شاشانق الأول على العرش هي من المسائل المعقدة جداً بسبب افتقارنا إلى الوثائق، ولم يغير استيلاء الليبيين على السلطة من انقسام مصر إلى شمال وجنوب كإمكانية كامنة في الواقع، وإذا استعاد شاشانق الأول سياسة أسلافه فقد حاول أن

يصادر نفوذ كهنة آمون لما فيه مصلحته فعين على رأسهم أحد أبنائه، ومن ناحية أخرى فسوف يسعى خلفاؤه إلى تقليده، ولكن على نحو ما حدث لجهود ملوك الأسرة الحادية والعشرين فقد بات جهودهم هم أيضاً بالفشل، وأخذ الصبية الذين نصبوهم على رأس كهنة طيبة يسعون دوماً إلى تأسيس أسرهم ملكية في الجنوب موازية للفرع الرئيسي القائم في الشمال، ولوضع حد لهذا الاتجاه سعى الفرعنة إلى الحد من نفوذ كبار كهنة آمون فاستحدثوا لقباً دينياً جديداً هو لقب «زوجة الإله» أو «عابدة الإله آمون». وعابدة الإله هذه كانت يوماً من أميرات البيت المالكة، ولكن كانت النتيجة أن استولت «عابدات الإله» على سلطة كبار الكهنة لئلا أن يصبحوا أكثر إخلاصاً منهم تجاه السلطة المركزية، وهكذا ظلت مصر منقسمة إلى شطرين، ونلاحظ قرب نهاية الأسرة الثانية والعشرين، أن طيبة قد جازت مرتين بإعلان تمردهما ضد ملوك الشمال، الأمر الذي يكشف عن نزعة استقلالية صاعدة في أوساط طيبة في علاقتها مع النظام الملكي.

٥ - الأسرات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ (٨١٧ - ٦٥٦ ق . م)

في عهد آخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين : «شاشاتق الثالث» و «يامي» و «شاشاتق الرابع»، انتشرت الفوضى لئلا أن توقف، ونزعت مصر إلى مزيد من التجزئة، لاسيما في الدلتا، فقد تأسست الأسرة الثالثة والعشرون قبل أن تنوى الأسرة الثالثة

والعشرون، وتزامن جزئياً وجود الأسرتين. ومن دراسة الأسماء التي اختارها فراعنة الأسرة الثالثة والعشرين: «يدي باست» و «شاشانق» الخامس و «تكوت» الثالث، يبدو من الراجح أنها كانت ترتبط بصلة القرابة مع الأسرة الثانية والعشرين. وكانت بوباستس عاصمة الأسرة الجديدة حيث استقرت عائلة آل شاشانق قبل أن تتسلم الأسرة الثانية والعشرون السلطة بفترة طويلة. وهكذا ازدادت مصر انقساماً على انقسام، فإلى جانب انشطارها إلى شمال وجنوب، تجزأت إلى شرق وغرب في الدلتا. وبأليتها كانت نهاية التجزئة. فإلى جانب الأسرتين المتوازيتين، ظهر على ما يبدو العديد من زعماء الأسرات المحلية في الشمال، إلى أن قامت الأسرة الرابعة والعشرون. وبالرغم من أن جميع هؤلاء الملوك لم ينامسبوا دائماً بعضهم البعض العداء، فقد كانت تجزئة السلطة مخفوفة بالمخاطر على مصر التي صارت عاجزة عن حشد جيش قوى، وفي نفس الوقت لم تستطع تأمين الأشغال اللازمة للاقتصاد العام التي لا غنى عنها من أجل ازدهار البلاد. وحوالي عام ٧٣٠ ق. م كان الموقف قد بلغ قدراً كبيراً من التعقيد والتشويش. ففي الدلتا كان يتقاسم السلطة فراعنة الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، من جانب، واقتسمها من جانب آخر، زعماء الأسرات الذين امتصبوا السلطة المحلية وأغلبهم من العسكريين الليبيين. أما في مصر الوسطى فمن الاستحالة بمكان أن نميز بين ما يخضع لفراعنة الأسرة الثانية

والعشرين وما يتبع فراغنة الأسرة الثالثة والعشرين، نون أن تحدث بينهم، مع ذلك، أعمال عدوانية. وفي الوجه القبلي، فإن كبير الكهنة وعابدة الإله أمون المرتبطان بصلة القرابة بالفراعنة المتريعين على عرش الشمال، قد أمسكا بزمام السلطة في طيبة وحافظا على استقلالهما تجاه الحكومة المركزية. وفي السودان، يرجح البعض أن جماعات كهنة أمون التي هاجرت، على ما يظن، في مستهل الأسرة الثانية والعشرين قد شكلت فيما بينها إدارة مستقلة، كان مركزها الضمري في «نياتا»، ولكن الأقرب إلى الصواب مع ذلك أن العواهل الذين تزعموا هذه المملكة كانوا ببساطة سودانيين وإن شرعت في الظهور حركة مزبوجة جنحت نحو المركزية.

حوالي عام ٧٥١ تسلم «پي عنخي» السلطة في نياتا، في السودان، ولا يشير اسمه بالضرورة إلى أصول مصرية. بل ومن المعتقد في الوقت الحاضر، أنه يتعين أن يُقرأ «پيبي»، لما كانت أعداد المصريين في النوبة محدودة على النوام، فقد اندمجوا مع السودانيين، فلما تسلم «پيبي» مقاليد الحكم، كان حاكماً على شعب سوداني قح، ومن أسماء أجداده نستخلص أنه لا يدين، على ما يبدو، بشئ لمصر، ولذلك غالباً ما يطلق على الأسرة التي أسسها الأسرة «الكوشية» (الاثيوبية)*، وسعى «پيبي - پي عنخي» إلى فتح مصر إنطلاقاً من الجنوب، وفي الدلتا، في الطرف الآخر من

* أطلق المصريون على السودان إسم «كوش» في حين أطلق عليه الإغريق «اثيوبيا».

Fosener. Dictionnaire de la Civilisation Egyptienne, P108

[المترجم]

البلاد، شرع «تف نخت» - أمير سايس (صال الحجر - حالياً) يعيد توحيد البلاد من حوله. ويبدو أنه مال إلى أسلوب الإقناع بدلاً من الغزو العنيف، وفرض على عواهل الأسرات المحلية أن يقروا بسيادته، فثبتهم في المقابل في سلطاتهم بصفتهم من أتباعه. وبعد أن وحد «تف نخت» مصر السفلى على هذا النحو، توغل في مصر الوسطى ليصطدم فيها بـ «پيبي» الزاحف من الجنوب. والرواية الوحيدة لصراع الشمال والجنوب وردتنا من خلال وثيقة واحدة تعرف اصطلاحاً بلوحة «پي عنخي» التي تعرض رؤية «جنوبية» للأحداث.

هذا المصدر على قدر كبير من التمييز، ويدعى پيبي - عنخي متفاخراً بأنه هزم «تف نخت» هزيمة منكرة وأنه احتل مصر بأسرها حتى تخوم الدلتا البحرية، وفي الواقع، فإذا صح أنه طرد «تف نخت» وأتباعه من مصر الوسطى وأنه استعاد منف، فمن المشكوك فيه في المقابل أن يكون قد زحف إلى أبعد من ذلك، وفي الواقع، فحالما فرغ «پيبي - پي عنخي» من انتصاره المزعوم، لم يكتف بالعودة إلى عاصمته نياتا فحسب، وهو ما يبدو غريباً في حد ذاته، بل إننا نحفظ. بالإضافة إلى ذلك بدليل يثبت أن «تف نخت» كان لا يزال محتفظاً بزمام الأمور في الدلتا بعد مرور بضع سنوات على الغزو الكوشي المزعوم، ومهما يكن من أمر، يعتبر «تف نخت» مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين التي لا تضم سوى

ملكين: «تف نخت» و «باك إن رنف»، («بكوريس» عند الإغريق). وبسطت هذه الأسرة سيادتها على الشمال. بينما كان «بيسى - پى عنخى» يحكم الجنوب مع الأسرة الخامسة والعشرين. وربما امتد سلطانه حتى منف، فالأسرتان الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون هما أسرتان متوازيتان، ولم تتحقق وحدة البلاد.

فى الشمال، خلف «باك إن رنف» والده «تف نخت»، وكان يعدّ على ما يبدو مشرعاً بارزاً ولكننا لا نعرف عنه إلا النذر القليل، وأنه كان وراء تمرد فى فلسطين ضد الأشوريين، وأنه دعم هذا التمرد بمفرزة من القوات المصرية التى هزمها على كل حال الجيش الأشورى، كما لقى هو شخصياً مصرعه عندما فتح الدلتا جيش «شباكا» الكوشى.

وفى الجنوب، من المؤكد أن «شباكا»، خليفة «پى عنخى» قد فرض سيادته على مصر حتى طيبة بل وحتى منف على ما يحتمل. وفى طيبة أصبحت الآن عابدة الإله آمون من سلالة سودانية، وقد غادر «شباكا» على كل حال، مدينة نياتا ليستقر فى طيبة، وانطلاقاً من هذه المدينة شرع يفتح مصر السفلى، وهى العملية التى كان «پى عنخى» قد تخلى عنها. ويبدو أنه نجح فى مسعاه ولكن لم تصلنا أية تفاصيل عن هذا الغزو الذى لقى خلاله «باك إن رنف» مصرعه. وما إن انتهى «شباكا» من معاركه حتى استقر فى

الشمال، وخلافاً لـ «تف تسخت» و«باك إن رنف» لم يسع إلى مناهضة آشور العدا، ومع اختفاء الأسرة الرابعة والعشرين حكمت الأسرة الخامسة والعشرون بمفردها وفرضت سيادتها على مصر ولو من الناحية الإسمية. إذ أن السلام على ما يرجح لم يعمّ تماماً البلاد بأسرها.

خلف شباكا كل من «شبتاكا» ثم «طهرقا» على التوالي، وعاد كلاهما إلى الأخذ بسياسة نشطة في آسيا، وشجعا حركات التمرد في فلسطين ضد آشور. ولكن سياستهما لم تكن أكثر توفيقاً من سياسة «باك إن رنف». وإنها المعجزة حقاً أن نرى الجيش الأشوري، بعد أن هزم التحالف الفلسطيني، لا يستولى على أورشليم ولا يبني الجيش المصري (ومن الراجح أن ويا الطاعون قد أكره الأشوريين على الإنسحاب من المعركة).

وحتى يتمكن «طهرقا» من متابعة الأوضاع في البحر المتوسط، اضطر إلى الإقامة في مصر الوسطى على نحو ما فعله أسلافه، ومن الراجح أنه اتخذ من تانيس (صان الحجر - حالياً) مقراً له. ومن ثم كان بعيداً جداً عن مصر العليا حتى يستطيع أن يحكمها حكماً فعالاً. ولكنه سعى سعياً حثيثاً ليؤمن على الأقل ولاء الجنوب، وخلافاً للتقاليد الموروثة لم يسلم كل السلطات لكهنة آمون، بل عهد بجانب منها إلى «حاكم للجنوب» هو «مونتو إم حات». هكذا نلاحظ أن السلطة الروحية قد انفصلت، عن قصد، عن السلطة الدنيوية لأسباب سياسية.

٦ - الغزوات الآشورية

الغزوة الأولى (٦٧١ ق . م) - لم ينصلح حال «طهرقا» بعد مغامرته الفاشلة في فلسطين، فمن مقره في تانيس وأصل تحريضه على حركات التمرد في آشور. وعام ٦٧١، استقر رأي «أسرحلون» - ملك آشور - على مهاجمة مصر مباشرة. لقد تجنب الدلتا، حيث كانت تتجمع القوات المصرية على ما يظن، ليعبر سيناء، متجها صوب منف التي استولى عليها، ثم استدار صوب الدلتا فزحف عليها من الخلف وأخضعها. وتمكّن «طهرقا» في بداية الأمر، من الاعتصام بطيبة، فلما هدد «أسرحدون» المدينة، هعد «طهرقا» الوادي متجهاً ناحية الجنوب، في حين سارع «مونتو إم حات» إلى الاعتراف بالسيادة الآشورية ليتجنب احتلال طيبة. وغادر «أسرحدون» مصر على جناح السرعة دون أن يخلف وراءه سوى بعض القوات، واستقل «طهرقا» هذا الرحيل ليحرض الحكام المحليين الذين كانوا قد أعلنوا ولاهم عند الغزو ضد الآشوريين، واستعاد مدينة منف.

الغزوة الثانية (٦٦٦ ق . م) - عند وفاة «أسرحلون» استأنف ابنه «أشوربانيبال» المعارك ضد مصر، ولما تمضى ثلاث سنوات بالكاد على قيام «طهرقا» بإعادة فتح مصر، وسقطت منف من جديد عام ٦٦٦، وواصل الجيش الآشوري في هذه المرة زحفه حتى طيبة فاستولى عليها. أما زعماء أسرات الدلتا الذين سبق لهم أن تمردوا على الآشوريين عام ٦٧١ فقد تم أسرهم ونقلوا إلى نينوى.

وتولى «طهرقا» بعيد هزيمته تاركاً السلطة لإبن أخيه «تانت»
أمون» الذى جرى تتويجه فى نياتا، وسوف ينجح «تانت أمون» -
شأنه شأن عمه - فى تحريض مصر ضد الغزاة الآسيويين، ولكن
سوف يكون إعادة فتحه لمصر لفترة وجيزة فحسب على نحو
ما حدث عام ٦٧١.

الغزوة الثالثة (٦٦٤)

هكذا طرد الآشوريون من مصر للمرة الثانية، ومالبثوا أن
عادوا إليها، فهزموا «تانت أمون» عام ٦٦٤ وردوه على أعقابهم إلى
صعيد مصر، وسقطت طيبة للمرة الثانية، وسلبت المدينة ونهبته هذه
المررة، وبعد أن لجأت الأسرة الكوشية إلى السودان، انحسر نهائياً
سلطانها عن مصر، وإن عاشت لعدة قرون فى منطقة نياتا -
مروى، حيث حكمت شعباً لا يمت بصلة لما هو مصرى، فاللغة لغة
إفريقية بحتة، بل والكتابة ذاتها تختلف عن الخط الهيروجليفى،
وإن ظلت المؤثرات المصرية قوية جداً، وسوف تحافظ هذه
الإمبراطورية على استقلالها حتى عام ٣٥٠ بعد الميلاد.

٧ - الأسرة السادسة والعشرون وطرد الآشوريين (٦٦٣ - ٥٢٥ ق . م)

أخذت أبعاد تطور الوضع السياسى العام وانتقال محور
الحضارات الذى أشرنا إليه فى صدر هذا الفصل تتحدد أكثر
فاكثر، إن الدور الذى قُدِّر لسكان حوض البحر المتوسط أن

يضطلعوا به، في هذا العالم الجديد، والذي كان قائما كإمكانية
كامنة منذ الغزوة الأولى لشعوب البحر، بدأ يتضح الآن بجلاء، ولما
كانت مصر عاجزة عن تحرير نفسها بمفردها من الآشوريين،
فسوف تعتمد على الإغريق الذين استخدمتهم كمرتزقة، ونظراً لأن
هذه المساندة لم تف بالغرض منها في حمايتها من آسيا، فسوف
تتقبل مصر دون اكتراث غزو الإسكندر لها. وهكذا غضت مصر
الطرف عن استقلالها الماضي، ولكن قبل أن يصبح فقدان حريتها
أمراً واقعاً، ستعيش من جديد مرحلة مجد وعظمة، بفضل فراعنة
الأسرة السادسة والعشرين. بيد أنه علينا أن نؤكد بوضوح على
حقيقة أن مصر، بعد أن حرمت من مواردها الإفريقية، باتت منذ
ذلك العصر لا تدين بقوتها إلى جيشها الخاص، بل إلى استخدام
المرتزقة الأجانب. فهؤلاء فقط كان في مقدورهم أن يحموا مصر
من امبراطوريات آسيا القوية من ناحية، وأن يخضعوا رعايا
فرعون ذاتهم، من ناحية أخرى.

«پستميك» الأول (٦٦٣ - ٦٠٩ ق.م) هو أول فراعنة

الأسرة السادسة والعشرين، وأمير من سايس (صا الحجر -
حاليا) في الدلتا. وقد خلف والده «نكاو» خلافة طبيعية، إنه أحد
أحفاد «تف نخت» الأبعدين الذي كان هو أيضاً أميراً على سايس
وأسس الأسرة الرابعة والعشرين، وبالتالي اكتسب پستميك الأول
حق المطالبة بعرش البلاد. وقد اعتمد منذ أوائل حكمه على

المرتزقة الإغريق، فبفضلهم طرد الآشوريين من مصر ولاحقهم حتى فلسطين، ولم يحل عام ٦٥٣ إلا وكانت البلاد قد تحررت - ومن ثم، فمن الراجح أن الحرب قد دامت قرابة العشر سنوات، وفي ذات الوقت وبمساندة الإغريق أيضاً قضى على زعماء الأسرات المحلية الذين كانوا يقتسمون مصر السفلى، عندئذ استطاع أن يعيد تنظيم البلاد قاطبة، وفي مصر العليا، بقى «مونتو إم حات» حاكماً على طيبة، حيث ظلّ في منصبه هذا منذ عهد الملوك الكوشيين، وبعد مفاوضات، حمل «پسمتيك» عابدة الإله آمون التي ماقتت حتى الآن أميرة ذات أصول سودانية، على أن تتبنى ابنته هو - «نيت إقرت» (نيتوكريس عند الإغريق)، وبعد أن ثبت نفوذه ودعمه، عين حاكماً جديدين، أحدهما في الجنوب في إدفو، والآخر في هيراكليوبوليس (إهناسيا - حالياً) في مصر الوسطى، وكانت محاولته هي المحاولة الأولى المتسعة لوضع حد لاستقلال الوجه القبلى الفوضوى حيال السلطة المركزية، فاستردت مصر وحدتها، ومن الراجح، أن الغزو الآشورى، عندما أحيى نموذج السلطة المركزية ومنافعها، قد ساهم في عودة وحدة مصر، ومع ذلك لا يوجد وجه للمقارنة بين هذه الوحدة وما كانت عليه في العصور المجيدة من تاريخ مصر، فالأجانب من المرتزقة الإغريق هم الذين وفروا لپسمتيك القوة للسيطرة على رعيته ذاتهم، كما أنه دان للإغريق بإعادة قوة مصر العسكرية إلى سابق عهدها

في مواجهة الآسيويين، فقد أصبحوا يشكلون قوام جيشه. وأعيد تنظيم الأسطول المصري على نسق مثيله الإفريقي. وتحول اقتصاد البلاد الداخلي ذاته بعد إقامة المستعمرات الإفريقية. ومن ثم لم تستطع مصر أن تكيف نفسها مع ظروف الحياة الجديدة للعالم القديم إلا بعد أن تنكرت لتقاليدنا الخاصة.

«نكاو» (٦٠٩ - ٥٦٤) هو ابن «بسمتك» الأول. خلف أباه دون مشاكل واعتمد مثل أبيه على الخارج - أعاد فتح قناة البحر الأحمر أو بدأ - على الأقل - أعمال إعادة حفرها التي كانت تستهدف ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط. فكانت الصورة الأولى لقناة السويس فيما بعد. كما كلف أيضا البحارة الفينيقيين العاملين في خدمته بالدوران حول إفريقيا.

بعد أن وطد سلطته في مصر، لم يقاوم «نكاو» إغراء العودة إلى سياسة مصر التقليدية حيال آسيا، ولم يدرك أن الزمن قد تغير وتبدل، ولم يعد في يد مصر القوة الكافية لتواجه بها الإمبراطوريات الآسيوية الشديدة المركزية. كما أن أوضاع الشرق الأدنى كانت قد تغيرت من جديد. فبعد أن ظلت آشور تحتفظ حتى الآن باليد الطولى، فقدت هيمنتها لصالح فارس وبابل بعد أن تحالفتا واستغل «نكاو» الصراع الدائر بين الفرس والبابليين والآشوريين للتوغل في آسيا على رأس جيشه، فهزم ملك يهوذا عند مجيدو، وأخضع فلسطين وسوريا، ثم واصل زحفه حتى

الفرات، ولما وصل عند هذه النقطة اصطدم بـ «نبوختنصر»، ابن ملك بابل، وهُزم الجيش المصري عند قرقيش، ومن حسن حظ «نكاو» أن «نبوختنصر» استدعى إلى عاصمة بلاده إثر وفاة والده، فلم يتمكن من جنى ثمار نجاحه، وبعد أن تمكن «نكاو» من العودة إلى مصر دون عوائق، استفاد من القلاقل الداخلية في بابل وأقام تحالفاً ضد «نبوختنصر» الذي أعاد السلام إلى الدول التابعة له، ثم قضى على هذا التحالف في يسر واستعاد فلسطين، ومع قرب نهاية حكمه، يبدو أن «نكاو» قد صرف النظر عن القتال ضد بابل، في شقة البرى على الأقل، إذ يبدو أن تشييد أسطول بمعونة الإغريق يشهد على أنه كان ينوى مواصلة القتال بحراً، ولم يمه الزمن، فقد وافته المنية قبل أن يتمكن من تحقيق مشاريعه.

أما «پسمتيك» الثاني (٥٨٨ - ٥٦٤ ق . م) - خليفة «نكاو» فلا نعرف عنه سوى القليل جداً وأنه قاد حملة إلى السودان وصلت حتى الجندل الثاني، إن لم يكن حتى الجندل الرابع، وهو أمر مرجح، كما قام برحلة إلى فينقيا، ولا يبدو أن احتلال السودان الذي تحقق، على كل حال، بمساندة وحدات إغريقية وآسيوية، كان طويلاً الأمد.

أما «واح - إيب - رع» - «أپريس» عند الإغريق - (٥٨٨ - ٥٦٨) فقد خلف «پسمتيك» الثاني واستأنف القتال ضد الفينيقيين وضرب الحصار حول مدينة صور دون جدوى على كل

حال، وحول عام ٥٧٠، منى بهزيمة منكرة في أعقاب تدخله في ليبيا فوضعت حداً لحمكه. وواقع الحال أن الليبيين قد استنجدوا به ليواجهوا الإغريق المقيمين في قورينة. أثارت هذه المغامرة الإستياء، ولا ريب أن «أحمس»، القائد الذي كلفه «واح إيب رع» بتهديئة التمرد قد استغل هذا الوضع ليتزعم العصيان ضد مليكه. وظل مال الصراع بين «واح إيب رع» و«أحمس» غير واضح على ما يبدو لفترة طويلة، ومن الراجح أنه قد مضى بعض الوقت وهما يتقاسمان البلاد، ثم كانت الغلبة لأحمس، فازاح «واح إيب رع» نهائياً.

«أحمس» الثاني - «أمازيس» عند الإغريق - (٥٦٨ - ٥٢٥). ورغم أن الشعور المعادي للأجانب قد ساعده بون شك عندما اغتصب السلطة، إلا أنه تحاشى تماماً أن يثير استياء الإغريق، الذين كانوا يشكلون قوام جيشه كما كان الحال في عهد غيره من ملوك هذه الأسرة. وعندما استأنف «نبوختنصر» القتال ضد مصر، اشتبك معه «أحمس» الثاني في معركة كانت وبالاً عليه وإن لم تؤد إلى احتلال مصر، ويؤكد المؤرخون الإغريق أن «أحمس» الثاني قد استولى على جزيرة قبرص، ولكن لا توجد بين أيدينا وثائق مصرية تؤكد هذا الغزو. أما الفرس الذين لم يتوقفوا عن التوسع، فقد شكلوا مع نهاية حكمه، تهديداً على الشرق الأدنى بأسره. ويحمى نفسه تحالف «أحمس» الثاني مع «كريسوس» ملك

ليديا، كما تحالف مع أسبرطة وبابل، ولسوء حظها بنهار حلفائه
الواحد قتلوا الآخر أمام الجيش الفارسي الذي يستولى على ليديا
أولاً، ثم يحل الدور على بابل ويعدها يتجه صوب مصر. ولكن
أحمس الثاني يتوفى، ويصطدم «قمبيز» بخليفته «بسمتيك» الثالث
ويهزمه عند بلوزيوم (الفرما حالياً) وذلك عام ٥٢٥ ق . م .

إن الأسرة السادسة والعشرين التي وضعت هزيمة بلوزيوم
نهاية لها، قد نجحت في إعادة تشكيل مصرأً موحدة مزدهرة. إن
الإنجازات الداخلية التي حققها فرعون هذه الأسرة جديدة بأن
تُدرس عن كثب. فبفضل ما أجروه من تنقلات بين الموظفين، وهو
ماينم عن رجاحة رأى وسداده، نجحوا في إحكام قبضتهم على
البلاد بأسرها، وعلى الفور استطاعت مصر أن تستغل ازدهارها
المستعاد لتعيش نهضة فنية حقيقية، لقد كانت حقاً «تغريدة
البعج»* لمصر العجوز.

٨ - الاحتلال الفارسي الأول (الأسرة السابعة
والعشرون: ٥٢٥ - ٤٠٥ ق . م)

كان الجيش المصري بعد هزيمته عند بلوزيوم، قد ارتد إلى
منفى، ولكنه أثبت عجزه عن مجرد الحيلولة دون سقوط المدينة. وفي
بادئ الأمر، أبقي «قمبيز» على «بسمتيك» الثالث على رأس
الحكومة. ولكن سرعان ما حاول الملك المصري أن يدير انتفاضة
ضد الغزاة، ولما فشل التمرد قُرض عليه الانتحار.

* يقال إن البعجة وهي تسمى تان من شدة الألم وكألمها تغرد.

تتكون الأسرة السابعة والعشرون من الملوك الفرس وأولهم «قمبيز» الذي أكمل فتح مصر وربما خفف من نظام السلب والنهب الذي فرضه الجيش الفارسي على البلاد، ثم جاء «داريوس» الذي واصل سياسة التقاليد المتواترة لملوك مصر الوطنيين، فأمر بتشييد معبد في الخارجة ونظم استغلال مصر الاقتصادية (وانتهى من حفر قناة البحر الأحمر التي بدأها «نكاو»). ويبدو أن المصريين قد ضاقت صدورهم مما عانوه من نير الفرس، فقامت في الدلتا، حوالي عام ٤٨٦، محاولة للتمرد، ووافقت المنية «داريوس» قبل أن يتمكن من إخماد هذا التمرد، ولكن «إركسيس» الذي خلفه قضى عليه بسهولة. ولم ييأس المصريون، على كل حال، واندفع تمرد جديد بزعامة كل من «إيناروس»، أيدسايس (صا الحجر حالياً)، وتلقى المتمردون الدعم من أسطول أثيني، وبفضل مساندة الإغريق، نجح المصريون في دحر الجيش الفارسي الذي لجأ إلى منف، وكان مقدراً لاقتصار المصريون أن يكون قصير العمر، فاستأنف الفرس القتال وهزموا المصريين، ولم يمضى ثمانية عشر شهراً على هزيمتهم المحلية، ونفذ الحكم الإعدام في «إيناروس» واضطر الأثينيون إلى الإلتسحاب، ولكن نجح «أميرتايوس» في المحافظة على مركزه في الدلتا، ولم يتوصل «داريوس» الثاني، إلى إعادة الهدوء إلى نصابه إلا بعد أن اتخذ موقفاً مهادئاً في مصر.

٩ - الأسرات ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ - ونهاية استقلال
مصر (٤٠٥ - ٣٤١ ق . م)

رغم النشاط التهاني للاسترايبيا (أى الماكم) الفارسي في
مصر، لم يتخلّ المصريون عن كفاحهم. وتزعم «أميرتايوس» التمرد
الذى انفجر عام ٤١٠، وهو ابن زعيم تمرد عام ٤٦٠ أو حفيده،
كما أنه سُمى سلفه، و«أميرتايوس» الجديد هو أمير ساييس (صا
الحجر - حالياً، كما أنه سليل فراعة الأسرة السادسة والعشرين،
وورث عنهم حقوقاً لا يستهان بها في وراثة العرش، ولا نعرف
شيئاً عن تفاصيل المعارك التى دارت بين «أميرتايوس» و الفرس،
اللهم إلا أن مصر كانت قد استردت حرّيتها عام ٤٠٤ بعد كفاح
دام ست سنوات.

لا تضم الأسرة الثامنة والعشرون التى أسسها
«أميرتايوس» سوى فرعون واحد: هو مؤسسها. وحرى بنا أن
نقول أننا لا نعرف منه شيئاً عدا أنه بسط سيادته على مصر
بأسرها بعد أن قام بتحريرها. ويبدو فى حقيقة الأمر أن الغزوات
الأجنبية كان لها الفضل على الأقل فى وضع حد للفوضى التى
كانت تقسم مصر.

بعد الأسرة الثامنة والعشرين خلفتها الأسرة التاسعة
والعشرون التى كانت أسعد حظاً منها، لأنها تضم أربعة ملوك.
و«ثايف - هاو - رود» («نقرتيس الأول» عند الإغريق) - هو

مؤسس الأسرة - وينحدر أصلاً من «منديس» في شرق الدلتا،
وشأنه شأن أسلافه من ملوك الأسرة السادسة والعشرين، فإنه
أسس سلطانه على صداقته مع الإغريق وعقد ميثاقاً مع أسبرطه.
كما أننا لا نعرف سوى القليل عن حكمة الذي دام لفترة قصيرة
جداً. وعاد «هكر» («اكوريس عند الإغريق») إلى الأخذ بسياسة
نشطة في آسيا وشارك في تحالف ضد الفرس. وعلى كل حال
فقد منى هذا التحالف بالهزيمة، ولكن «هكر»، استطاع بفضل
اعتماده على المرتزقة الإغريق أن يتفادى غزو مصر من جديد.
وخلفه «پساموت» ثم «نايف - عاد - رود» الثاني
(«نفرتيس» الثاني، عند الإغريق)، ولا نعرف عنهما سوى أن
حركات التمرد الداخلية قد تفجرت في عهدهما، وأن أمير
«سبنتوس» (سمنود حالياً) قد خلع ثانيهما عن العرش ليؤسس
الأسرة الثلاثين.

**الأسرة الثلاثون هي آخر الأسرات الوطنية المستقلة، ومن
الراجع أن مؤسسها «نخت - نب - إن» («نختنبو» الأول، عند
الإغريق): ٣٧٨ - ٣٦٠، قد تسلم السلطة بمساندة كهنة «سايس»
(صا الحجر، حالياً)، ومن الراجع، وخلافاً لسياسة أسلافه
المباشرين، أن يكون قد استغنى عن مساعدة الإغريق على الأقل،
في بداية حكمه. ويفضل تضافر ظروف موفقة وأخطاء أعدائه،
فقد استطاع أن يحول دون عودة الفرس إلى احتلال مصر، وإن**

كان هؤلاء قد تمكنوا من الوصول إلى منطقة منف، و«نختنبو»
الأول بناءً عظيم، رمم العديد من المعابد التي مازالت تشهد على
ذوق سليم. وكان ابنه «تايوس» (٣٦١ - ٣٥٩) شريكاً في العرش
في حياة أبيه. وحسب عادة جعلها المصريون قانوناً لا مناص منه،
عندما قادت قوتهم دون المستوى الذي يسمح لهم بالوقوف في وجه
آسيا، سعى «تايوس» إلى عقد الأحلاف مع الإغريق بعد أن كان
والده قد تخلّى عنها، وبفضل «هوليت» hoplites إسبرطة (وهم
المشاة الإغريق المدججون بالسلاح)، وبفضل المرتزقة الأثينيين
الذين ضمن مؤازرتهم له، عاد جيشه إلى ما كان عليه من قوة
جبارة، فانتهز الفرصة ليثشن حملة على آسيا. وللأسف، وبعد أن
حقق انتصارات ياهرة في بداية الأمر، دبت الخلافات في صفوف
الجيش. ولكن بعد خيانة أخيه الذي كان قد تركه وراءه في مصر،
لم يجد «تايوس» وقد ضاقت به السبل، سوى أن يلوذ بالفرار إلى
بلاد ملك الفرس، بينما استولى على السلطة مقتصب، هو ابن
أخيه: «نختنبو» الثاني.

«نختنبو» الثاني (٣٥٩ - ٣٤١) - وما إن اعتلى نختنبو
الثاني العرش حتى وجد نفسه طرفاً في صراع ضد انتفاضة
شعبية - انطلقت على ما يبدو من منطقة منديس، وربما كانت
بتحريض من أحد الأفراد سليل ملوك الأسرة التاسعة والعشرين.
ولم يقض «نختنبو» على التمرد إلا بفضل مساندة الإغريق ونسج

على منوال عم والده فشيده أو أعاد تشييده العديد من المعابد. ولكن لم يكتب لمصر أن تنعم طويلاً بالسلام الذي أعاده نخنتبو إلى ربوعها.

١٠ - في ظل الاحتلال الفارسي الثاني

(٣٤١ - ٣٣٣ ق . م)

في آسيا، كان الملك الفارسي الجديد «أرتكسر كسيس» الثالث - «أوخوس»، قد عقد العزم على غزو مصر من جديد، فجهز جيشاً جراراً، وشن هجومه منذ عام ٣٥١ ق . م. وكان «نخنتبو» قد جند في الجيش المصري مرتزقة أسبرطيين وأثينيين تمكنوا في بداية الأمر من دحر جيش «أرتكسر كسيس - أوخوس»، الذي انكب مسرعاً بعد العدة لغزوة جديدة ففي عام ٣٤١ ق . م، شن هجومة الجديد، برأ وبحراً، بوسائل تعتبر مهولة بمقياس هذا العصر، فقد حشد «أرتكسر كسيس» ثلاث مائة ألف مقاتل، وثلاثمائة سفينة حربية مجهزة بثلاثة صفوف من المجاديف، في حين لم يتوفر لنخنتبو سوى مائة ألف مقاتل. وفي هذه المرة، لم تكف شجاعة المرتزقة الإغريق لوقف الجيش الفارسي، وتم الاستيلاء على منف على وجه السرعة، اضطر «نخنتبو» إلى الفرار إلى مصر العليا، حيث استطاع أن يحافظ على مواقع لمدة سنتين، ولكن نجحت حملة فارسية ثانية في استكمال احتلال مصر من أقصاها إلى أقصاها، ولا ندري كيف كانت نهاية «نخنتبو» آخر ملوك مصر المستقلين.

١١ - نهاية الاحتلال الفارسي الثاني وفتح الإسكندر

إن ما نعرفه عن الإحتلال الفارسي الثاني الذي كان قصير الأمد على كل حال (فلم يدم سوى تسع سنوات) هو أقل بكثير من الإحتلال الفارسي الأول. وقد عانى السكان والبلاد الكثير، على مايبين، في ظل إحتلال قوات «أرتكسر كسيس - أخوس» وخلفائه : «أرسيس» و «داریوس» الثالث «كودومان». ومن ثم فلا عجب أن تتفجر الانتفاضات وأهمها انتفاضة «چتاش»، أمير الدلتا الذي تلقب بالألقاب الملكية ونجح في المحافظة على مواقعه في منطقة منف لعدة سنوات، دون أن يتمكن مع ذلك من تحرير البلاد.

كان تحرير مصر من القرس من نصيب الإغريق - ففي عام ٣٣٣ هزم الإسكندر «داریوس» الثالث «كودومان» عند «إسوس» ودخل الفاتح المغوار مصر عام ٣٣٢ ق . كمحرر لها واستجابة لطلب أحد المصريين، على مايبين.

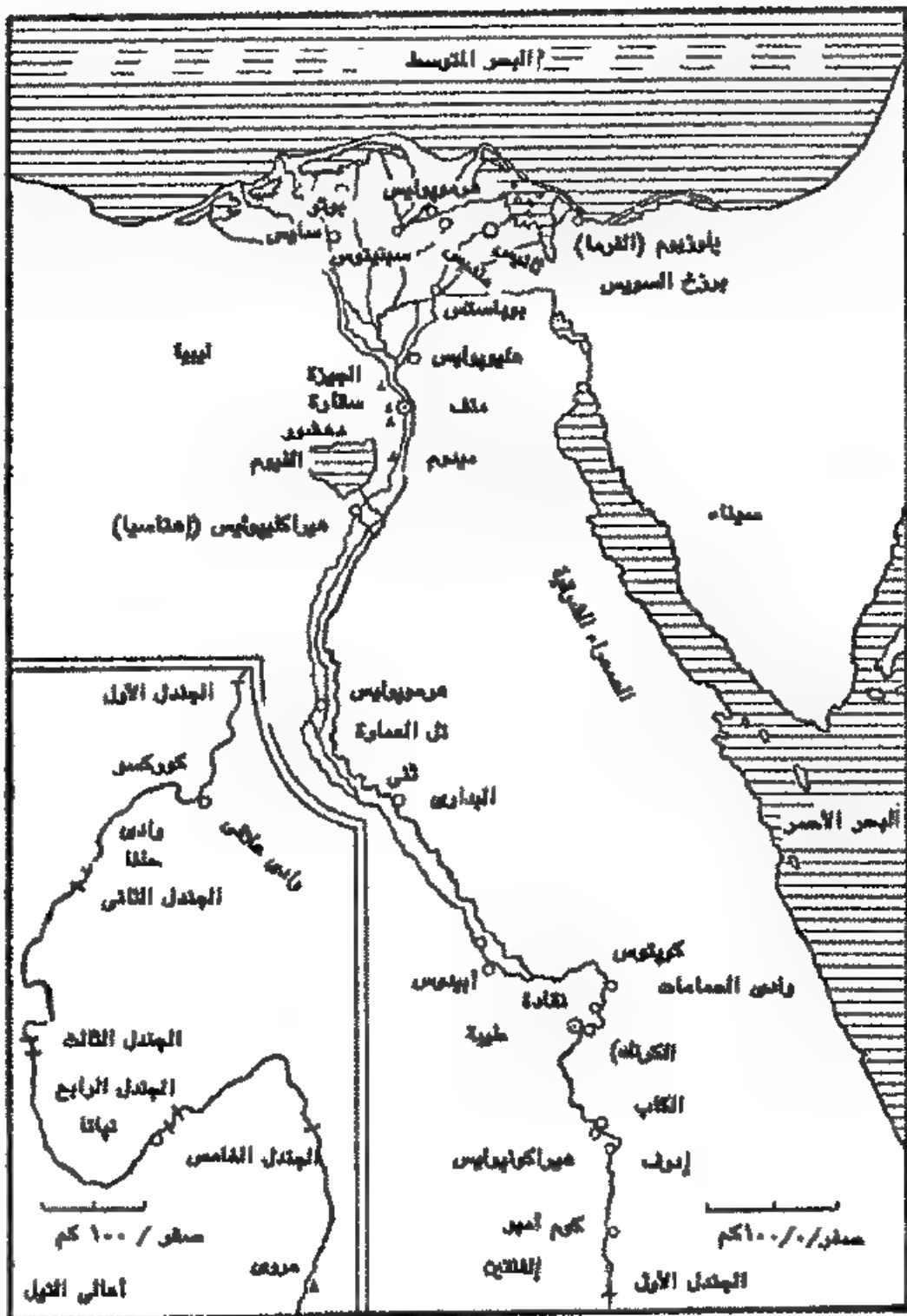
ينتهي تاريخ مصر، بمعنى الكلمة، مع الإحتلال المقتوني. وسوف يتولى ملوك إغريق ثم رومان توجيه أقدار مصر. وإن يحكم مصر، من الآن فصاعداً، فرعون من أبنائها. إن فتح الإسكندر لمصر لم يكن صدفة عرضية، بل حدثاً لا مئاس منه، شأنه شأن غزو الرومان، فيما بعد، نتيجة لتوازن القوى المتواجدة. فمصر هي الآن، جزء لا يتجزأ من عالم البحر المتوسط الذي لم يكن في وسعه

ولا في مراده أن يتركها وشأنها، كانت أقوى وربما أكثر شياً أيضاً، ومن المرجح أنها كانت ستستطيع المحافظة على استقلالها بالارتكاز على أراضيها الإغريقية، ولكن كما رأينا، عجزت الأسرات الوطنية الأخيرة أن تبعث الحياة في قوة مصر التليدة، ولم تتجح في إطالة أيامها بعض الشيء، في مواجهة إمبراطوريات آسيا الشاسعة، إلا بالاعتماد على القوات الإغريقية. وهو ما يفسر جزئياً، الأسباب التي دفعت مصر إلى تقبل احتلال الإسكندر عن طيب خاطر، وفي منطقة طيبة بقي شيء من روح الاستقلال التليد صامداً حول المركز الديني الذي نشأ حول معبد آمون، وعلى كل حال، فمن هنا انطلقت حركات التمرد النادرة التي قامت ضد الحكام الأجانب. ولكن ظلت هذه الحركات دون أثر يذكر، فقد ماتت الحضارة المصرية وإن ظلت تحيا في المعابد على امتداد أكثر من ثمانية قرون، حتى تم إغلاقها في عهد تيودوسيوس، قرب نهاية القرن الرابع الميلادي (مرسوم عام ٣٩١). إن العديد من هذه المعابد، رممها أو شيدها، في واقع الأمر ملوك البطالمة أو الأباطرة الرومان، فبقيت مراكز الثقافة المصرية، والنصوص التي تغطي جدرانها، تكون ذخيرة فريدة في بابها لدراسة بيانة الفراعنة.

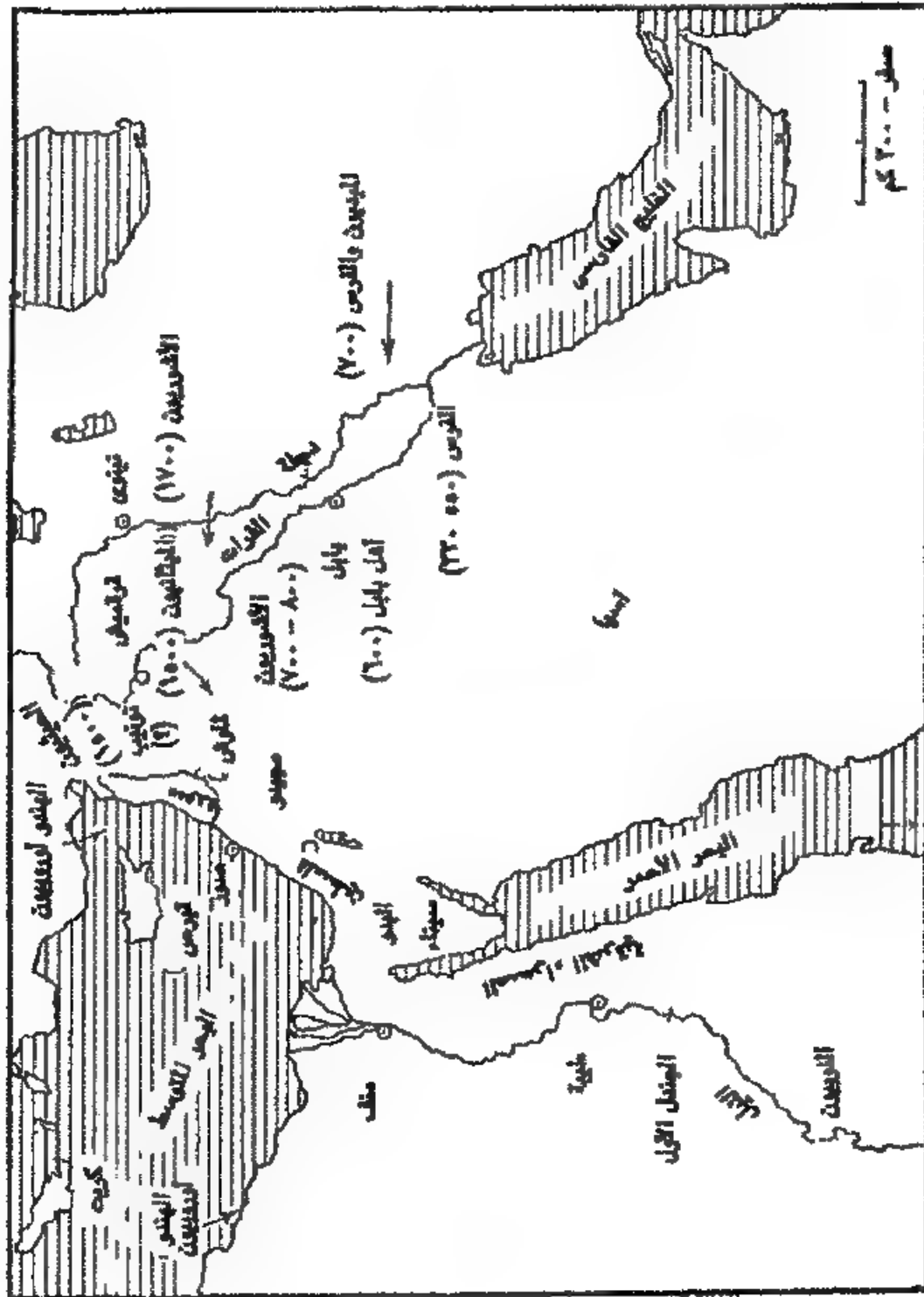
الخاتمة

ألقينا نظرة عابرة على أبرز أحداث تاريخ مصر. وبعد مرحلة إعداد طويلة، ما زال يكتنفها الغموض في العديد من جوانبها، شاهدنا بزوغ وازدهار حضارة فريدة في هاياها. وبعد مرحلة الاكتمال هذه لسنا كيف دمّرت الفوضى، شيئاً فشيئاً، الترابط الداخلي للإمبراطورية المصرية الذي شكّل قوة مصر كلها. وسعينا بحثاً عن أسباب هذه الاضمحلال الممتد، فوجدنا أن بعضها ناجم عن تضاريس البلاد الجغرافية، وبعضها الآخر عن التطور التاريخي للحضارات التي أحاطت بمصر. وربما أضيفت إلى هذه الأسباب المادية الخالصة، أسباب أخرى أكثر عمقاً ولكنها تخفى على جهود التفكير المنهجي. إن مشكلة اندثار الحضارات غامضة في العديد من جوانبها فموض موت الأفراد، لقد قضت مصر على غزوتي الهكسوس والأشوريين، ونجحت، بعد عناء كبير، في واقع الأمر، وبمساعدة الإفريقي، في التخلص من الفرس، فمن كان يصدق، أنه كان يكفى أن يظهر الإسكندر في مصر، حتى تصبح إغريقية؟ ويبدو أن فتور العزيمة قد اعترى المصريين، وتلح علينا قصائد تخلصت من كل الأوهام وتفتى بها المصريون في ولائهم: «الأبدان زائلة منذ الأزل وتحمل محلها أجيال جديدة. الشمس تشرق صياحاً وتختفي في الغروب، ويتكاثر البشر والنساء يحملن، والرثتان تستنشقان الهواء بوفرة. وتمضى أحاديث حكماء الزمن

الفاير. ماذا حلّ بديارهم؟ لقد تهدمت الجدران واختفت منازلهم،
وكانهم لم يوجدوا قط. لا أحد يعود حيث ذهبوا ليخبرنا عن
أحوالهم.. افعل في الديننا ما يحلو لك حتى تدنو ساعتك الأخيرة،
فإله الموت لا يسمع النواح ولا يخلص العويل أحداً من العالم
الآخر. اقض يومك في مروح، أجل، لا يصطحب أحد معه ثرواته،
أجل، إن الذين يرحلون إلى هناك، ما من أحد منهم استطاع قط
أن يعود.»



الخريطة رقم ١ : مصر



جدول التتابع الزمني لملوك مصر

Drioton - Vandier, L'Égypte (Coll.)

العصر ما قبل الثيني والثيني

(٢٧٨٠-٣١٠٠)

الملك العقرب

الأسرة الأولى

نعرمر (مينا)

عما

جر

واحي

دن - واديمو

عج إيب

سمرخت

قا

الأسرة الثانية

حوتب سخموى

نبرع

نى نقر (نقريمو)

ونج

سندج

سنج

پرایب سن

خج سخم

خج سخموی

الدولة القديمة

(۲۷۸۰ - حوالي ۲۴۰۰ ق م.)

الأسرة الثالثة (۲۷۷۸ - ۲۷۲۳ ق م)

نب کا

نتر ایرخت (چسر)

سخم خت

سانخت (نب کا)

خج با

نفرکا

حو (حونی)

الأسرة الرابعة (۲۷۲۳ - ۲۵۶۳ ق م.)

سنفرو

خوفو

چدفرع

جعفر
منكادع
شبيسكاف

الأسرة الخامسة (٢٥٦٣ - ٢٤٢٣ ق.م)

أوسركاف
ساحورع
نفر إيركارع - كاكاي
شبيسكارع
نفر إف رع
ني أوسرع - إيتي
منكارحور
چدكارع - إسپسي
أوناس

الأسرة السادسة (٢٤٢٣ - حوالي عام ٢٣٠٠ ق.م)

تيتي
أوسركارع
مري رع - بيبي الأول
مري رع - عنتي إم ساف
نفر كارع بيبي الثاني

عصر الانتقال الأول
(٢٤٠٠ - ٢٠٦٥ ق.م تقريبا)

نهاية الأسرة السادسة
بيبي الثاني (نهاية حكمه)
موزع الثاني
نيف إقرت (نيتوكريس)

الأسرة السابعة
أسرة افتراضية

الأسرة الثامنة (٤ - ٢٢٢٠ ق.م)
لا نعرف شيئاً تقريباً عن هذه الأسرة: يصعب توضيح قائمة
ملوكها.

الأسرة التاسعة (هيراكليوبوليس : إهناسيا) (٢٢٢٢ - ٢١٣٠)
خيتي الأول (٢٢٢٢ - ٢١٨٠ ق.م)
عدد من الملوك غير المعروفين (٢١٨٠ - ٢١٣٠ ق.م)

الأسرة العاشرة
(هيراكليوبوليس)

تقر كارع (٢١٣٠ - ٢١٢٠)
خيتى الثالث (٢١٢٠ - ٢٠٧٠)
مري كارع (٢٧٠ - ٢٠٥٠)

الأسرة الحادية عشرة (طيبة)
٢١٦٠ - ٢١٣٠

أنتف الأول (٢١٣٠ - ٢١٢٠)
أنتف الثاني (٢١٢٠ - ٢٠٧٠)
أنتف الثالث (٢٠٧٠ - ٢٠٦٥)

(نهاية الأسرة العاشرة وبداية الأسرة الحادية عشرة متزامنتان)

الدولة الوسطى
(١٧٨٥ - ٢٠٦٥)

نهاية الأسرة الحادية عشرة (٢٠٦٥ - ٢٠٠٠)
منتوحوتب الأول (٢٠٦٥ - ٢٠١٥)
منتوحوتب الثاني (٢٠١٥ - ٢٠١٠)
منتوحوتب الثالث (٢٠٠٧ - ٢٠٠٠)

الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٥)
أمنمحات الأول (٢٠٠٠ - ١٩٧٠)

سنوسرت الأول (١٩٧٠ - ١٩٣٦)
أممحات الثاني (١٩٣٨ - ١٩٠٤)
سنوسرت الثالث (١٨٨٧ - ١٨٥٠)
أممحات الثالث (١٨٥٠ - ١٨٠٠)
أممحات الرابع (١٨٠٠ - ١٧٩٢)
سويك نفرورع (١٧٩٢ - ١٧٨٥)

عصر الانتقال الثاني (١٧٨٥ - ١٥٨٠)

الأسرة الثالثة عشرة (١٧٨٥ - ١٦٨٠)
خوتاي - أممحات - سويك حوتب الأول
سي عنخ تاي - سخم كارع
خوتاي - بن من.
أممحات - سنبوف
أميني - أنتف - أممحات
خوتاي رع - وچاف
سنفر إيب رع سنوسرت
ثم توالى على عرش البلاد ٢٧ ملكاً يحمل العديد منهم لقب
«خنجر» و«نفرحوتب»، سويك حوتب و«ديدومسيو». وتنتهى
القائمة بحكم «نحسى».

وترتيب ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشر غير مؤكد. ومن
الراجح أن العديد منهم قد حكموا البلاد في نفس الوقت.

الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة (١٧٣٠ -

١٥٨٠)

(الهكسوس)

خيان

أبيبي الأول

أبيبي الثاني

عاقن رع - أبيبي الثالث

الأسرة السابعة عشرة (١٦٨٠ - ١٥٨٠)

تضم خمسة عشر ملكاً يحملون في الغالب اسم «أنتف» أو «سويك
إم ساف» وتنتهي الأسرة بحكم «سقن رع» و«قاعا» و«كامس».

الفترة الحديثة

(١٥٨٠ - ١٢٠٠)

الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ - ١٢١٤)

أحمس (١٥٨٠ - ١٥٥٨)

أمنحوتب الأول (١٥٥٧ - ١٥٣٠)
تحوتمس الأول (١٥٣٠ - ١٥٢٠)
تحوتمس الثاني (١٥٢٠ - ١٥٠٥)
حتشبسوت (١٥٠٥ - ١٤٨٤)
تحوتمس الثالث (١٥٠٤ - ١٤٥٠)
أمنحوتب الثاني (١٥٠٤ - ٢١٤٢٥)
تحوتمس الرابع (١٤٠٨ - ٢١٤٢٥)
أمنحوتب الثالث (١٤٠٨ - ١٣٧٢)
أمنحوتب الرابع - أخناتون (١٣٧٢ - ١٣٥٤)

سمنخ كارع

١٣١٤ - ١٣٥٤ {
توت عنخ آمون
أى
حور محب

الأسرة التاسعة عشرة (١٣١٤ - ١٢٠٠)

رمسيس الأول (١٣١٤ - ١٣١٢)

سيتي الأول (١٣١٢ - ١٢٩٨)

رمسيس الثاني (١٣٠١ - ١٢٣٥)

مرنپتاح

أمون مس

مرنپتاج - بي پتاج ١٢١٩ - ١٢١٠

سيتي الثاني

رمسيس سي پتاج

يارسو

الاضمحلال

الأميرة العشرون (١٢٠٠ - ١٠٨٥)

ست نخت (١٢٠٠ - ١١٩٨)

رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦)

رمسيس الرابع

رمسيس الخامس

رمسيس السادس

رمسيس السابع

رمسيس الثامن

رمسيس التاسع

رمسيس العاشر

رمسيس الحادي عشر

١١٦٦ - ١٠٨٥

العصر المتأخر

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٨٥ - ١٠٥٤)

سمنس (١٠٨٥ - ١٠٥٤)

حريحور

بوسيسينس الأول (١٠٥٤ - ١٠٠٩)

بى نجم

أمون إم أوبه (١٠٠٩ - ١٠٠٠)

مى أمون (٦٠٠٠ - ٩٨٤)

بوسيسينس الثانى (٩٨٤ - ٩٥٠)

الأسرة الثانية والعشرون (٩٥٠ - ٧٣٠)

شاشانق الأول (٩٥٠ - ٩٢٩)

اوسركون الأول (٩٢٩ - ٨٩٣)

تكلوت الأول (٨٩٣ - ٨٧٠)

أوسركون الثانى (٨٧٠ - ٨٤٧)

شاشانق الثانى (٨٤٧)

تكلوت الثانى (٨٤٧ - ٨٢٣)

شاشانق الثالث (٨٢٣ - ٧٧٢)

يامى (٧٧٢ - ٧٦٧)

شاشانق الخامس (٧٦٧ - ٧٣٠)

الأسرة الثالثة والعشرون (٨١٧ - ٧٣٠)

بدي ياست (٧٦٣ - ٨١٧)

شاشاتق الرابع (٧٦٣ - ٧٥٧)

اوسركون الثالث (٧٥٧ - ٧٤٨)

تاكلوت الثالث

أمون روه (٧٤٨ - ٧٣٠)

أوسركون الرابع

الأسرة الرابعة والعشرون (٧٣٠ - ٧١٥)

تف نخت (٧٣٠ - ٧٢٠)

باك إن زنف (بكوريس) : (٧٢٠ - ٧١٥)

الأسرة الخامسة والعشرون (الكوشية) ٧٥١ - ٦٥٦

بي عنخي (بيبي) : (٧٥١ - ٧١٦)

شباكا (٧١٦ - ٧٠١)

طهرقا (٦٨٩ - ٦٦٣)

تانوت أمون (٦٦٣ - ٦٥٦)

ملحوظة : الأسرات ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ هي أسرات متزامنة في جانب منها. وتاريخ الأسرة الثالثة والعشرين تقريبية إلى حد كبير.

الأسرة السادسة والعشرون (الساوية) (٦٦٣ - ٥٢٥)

بسمتيك الأول (٦٦٣ - ٦٠٩)

تكاو (٦٠٩ - ٥٦٤)

بسميتك الثاني (٥٩٤ - ٥٨٨)

واح إيب رع (أپريس) : (٥٨٨ - ٥٦٨)

أحمس الثاني (أمازيس) (٥٦٨ - ٥٢٦)

بسمتيك الثالث (٥٢٦ - ٥٢٥)

الاحتلال الفارسي الأول

أو الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥ - ٤٠٤)

شمبيز (٥٢٢ - ٥٢٥)

داریوس الأول (٥٢٢ - ٤٨٥)

إكسركسيس (٤٨٥ - ٤٦٤)

ارتكسركسيس (٤٦٤ - ٤٢٤)

داریوس الثاني (٤٢٤ - ٤٠٤)

الأسرة الثامنة والعشرون

أميرتايوس (٤٠٤ - ٣٩٨)

الأسرة التاسعة والعشرون (٣٩٨ - ٣٩٢)

نايف - عاو - زود (نعریتس الأول) (٣٩٨ - ٣٩٢)

مكر (أكوريس) (٣٩٢ - ٣٨٠)
ياموت (٣٧٩ - ٣٨٠)
نايف عارود (تفرتيس الثاني) (٣٧٨ - ٣٧٩)

الأسرة الثلاثون (٣٧٨ - ٣٤١)
نخت - نب - إف (نختنبو الأول) (٣٧٨ - ٣٦٠)
تايبوس (٣٦١ - ٣٥٩)
نخت - نب - إف (٣٥٩ - ٣٤١)

الاحتلال الفارسي الثاني (٣٤١ - ٣٣٣)
أرتكسر كسيس الثالث - أوخوس (٣٤١ - ٣٣٨)
أرسيس (٣٣٨ - ٣٣٥)
داريوس الثالث كوبومان (٣٣٥ - ٣٣٣)
فتح الإسكندر (٣٣٢)

ملحوظة : عند إعداد هذا الجدول اعتمدنا على «قائمة التتابع الزمني للملك مصر التي نشرها جان فاندييه J. Vandier في كتاب «شعوب شرق البحر المتوسط ٢٠ : مصر».

Les Peuples de l'orient méditerranéen.. II. L'Egypte 4^e éd. 1964.

وقد أثبتنا الأرقام الأولى التي وردت في هذه القائمة، وما زال التتابع الزمني - ولو في تفاصيله - محل جدل بين المؤرخين الذين يميل بعضهم إلى خفض الأرقام الخاصة بالأسرات من الأولى إلى الثانية عشرة.

المراجع

(مراجع عامة باللغة الفرنسية)

BIBLIOGRAPHIE

بيبيوجرافيا

(Ouvrages généraux en langue française)

On trouvera un exposé très complet de l'histoire de l'Égypte et d'excellentes bibliographies pour chaque époque dans :

Étienne DRIOTON et Jacques VANDIER, *Les Peuples de l'Orient méditerranéen. II. L'Égypte*, 4^e éd. augmentée, Presses Universitaires de France, 1962 ; 5^e éd. anastatique, Paris, 1975.

Voir également :

G. JÉQUIER, *Histoire de la Civilisation égyptienne*, Paris, 1930.

A. MONET, *Histoire de l'Orient*, Paris, 1929 (bibliographies).

— *Le Nil et la Civilisation égyptienne*, Paris, 1926.

BREASTED, *Histoire de l'Égypte* (traduit de l'anglais), Bruxelles, 1926.

S. SAUNERON, *Nous partons pour l'Égypte*, Presses Universitaires de France, 1966.

— *Les prêtres de l'ancienne Égypte*, Paris, 1957.

P. MONTEY, *La vie quotidienne en Égypte au temps des Ramsès*, Paris, 1946.

G. POSENER, S. SAUNERON, J. YOYOTTE, *Dictionnaire de la Civilisation égyptienne*, Paris, 1959.

J. PIRENNE, *Histoire de la Civilisation de l'Égypte ancienne*, Paris, 1961-1963.

F. DAUMAS, *La Civilisation de l'Égypte pharaonique*, Paris, 1965.

C. DESROCHES-NOBLECOURT, *L'art égyptien*, collection « Les Neuf Muses », Presses Universitaires de France, 1962.

Les Pharaons, vol. I : *Le temps des pyramides*, Paris, 1978, « Univers des Formes ».

« Univers des Formes », *Les Pharaons* :

Vol. I : *Le temps des pyramides*, Paris, 1978 ;

Vol. II : *L'empire des conquérants*, Paris, 1979 ;

Vol. III : *L'Égypte du crépuscule*, Paris, 1980.

J. VANDIER, *La religion égyptienne*, coll. « Mana », Paris, Presses Universitaires de France, 1943.

J. VERCOUTTER, *A la recherche de l'Égypte oubliée*, Paris, Gallimard, 1986.

الباب الأول

مصر في الزمان والمكان

- ١ - مصر وعالمنا المعاصر ٢ - معرفة مصر ٣ - أرض مصر
٤ - السكان ٥ - اللغة والكتابة

الباب الثاني

٤٣ تاريخ مصر

٤٩ الفصل الأول - العصور المظلمة

- ١ - الترتيب الزمني ٢ - العصر الحجري القديم
٣ - العصر الحجري الحديث ٤ - العصر الإنيوليتي أو
الككوليتي ٥ - نهاية عصر ما قبل الأسرات والعصر
الثيني

٧٨ الفصل الثاني - مصر الكلاسيكية

- ١ - الدولة القديمة ٢ - عصر الانتقال الأول ٣ - الدول
الوسطى ٤ - عصر الانتقال الثاني ٥ - الدولة الحديثة

١٢٩ الفصل الثالث - عصر الإنحطاط

- ١ - نهاية الأسرة التاسعة عشرة ٢ - الأسرة العشرون
- ٢ - الأسرة الحادية والعشرون ٤ - الأسرة الثانية والعشرون ٥ - الأسرات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ - ٦ - الغزوات الأشورية ٧ - الأسرة السادسة والعشرون وطرد الأشوريين ٨ - في ظل الإحتلال الفارسي الأول (الأسرة ٢٧) ٩ - الأسرات ٢٨ و ٢٩ ، ٣٠ ونهاية استقلال مصر ١٠ - في ظل الإحتلال الفارسي الثاني ١١ - نهاية الإحتلال الفارسي الثاني وفتح الإسكندر

١٦٥ الخاتمة

الملاحق

- ١٦٧ ١ - الخريطة رقم ١ : مصر
- ١٦٨ ٢ - الخريطة رقم ٢ : مصر وجيرانها
- ١٦٩ ٣ - جدول التابع الزمني للملك مصر

١٨٢ المراجع

الفهرست

رقم الإيداع : ١٥٦٥ / ٩٣

I.S.B.N.: 977 - 5091 - 15 - 2

صدر هذا الكتاب في باريس لأول مرة عام ١٩٤٦، وظل يعاد طبعه مرارا، حتى صدرت الطبعة الثالثة عشرة منه في أكتوبر ١٩٩٠، منقحة ومصصحة في ضوء الاكتشافات الحديثة. ومن هنا، وإن جاء ذلك متأخرا، كان لابد أن تصدر الطبعة العربية الأولى منه.

إن عالم مصريات كبير وقد، مثل جان فيركوتير، الذي قضى سنين عديدة في مواقعنا الأثرية، يدرس، ويمحص، ويقارن، لقادر على أن يعطينا تاريخ مصر القديمة منذ عصر ما قبل الأسرات وحتى فتح الإسكندر، بشكل مركز في مثل هذا الكتاب الصغير، دون أن يهمل خيطا واحدا من خيوط هذا التاريخ.

وخلال هذا التاريخ الطويل الذي شهدت فيه مصر أمجادا، وعانت من إخفاقات، وتعرضت لكل صروف الحياة، من حروب أهلية وفوضى. ومجاعات وغزوات أجنبية وصراعات دينية، سعت مفسر دائما إلى البحث عن إجابات لكافة العضلات التي ما فتئت تتسلط على ذهن الإنسان.

هكذا يقول المؤلف.

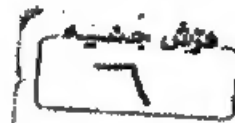
"الفاشو"



دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع

القاهرة - باريس

القاهرة - شارع مناريت - رقم ٢٥
محافظة القاهرة - المنطقة الصناعية



الثلث